وليـم سـارويـان

مختارات قصصية (1)

70 ألـف آشـــوري

***- الهيئـــة الاســتشــارية لــدار الصــداقـــة:**

د. عبد الرحمن منيـف	هـرانت ماتيـفـوسـيان
وليـــد اخـــلاصـــي	د. يروانت كاســـوني
فـــراس الســـوّاح	المطران بطرس مراياتي
د. عبـد الـرزاق عيـد	د. روبـرت جبـجيـان
محـمـد جـمـال باروت	كـاسـبـار دردريـان
نـزيـه أبـو عـفـش	د. كيفورك تميزيان

نجـم الديـن سـمّان

مختارات قصصية (1)

وليم سارويان

70 ألف آشوري

ترجمة : حسني سيد لبيب

دار الصداقة - حلب 1994

70 ألــف آشــوري
الطبعة الأولى 1994
(1000) ألف نسـخة

الناشر : دار الصداقة
للترجمة والنشر والتوزيـع
سورية - حلب ص.ب 11811

التنضيد الألكتروني : دار الحاسوب للطباعة - حلـب - بناية الأزبكية

* الخطوط وتصميم الغلاف : رافـد فيّـاض
* لوحـــة الغـــلاف : آكــوب أكــوبيــان

استطاع رجل أن يمشي عشوائياً أربعة أو خمسة أميال في قلب مدينتنا، ويشاهد شوارعنا وهي تصغر بالنسبة لما حولها من أرض وعشب. وتكثر في أماكن عديدةٍ من الأرض كروم العنب وبساتين الفواكه، ولكن معظم الأراضي صحراوية، تنبت فيها حشائش الصحراء الجافة القوية، وفي هذه الأرض تعيش كائنات حية تتحمل بحكم طبيعتها سكون الصحراء لعدة قرون. حيث يمكن أن تتواجد هناك الثعابين والضفادع الجبلية القرناء، وكلاب البراري، والأرانب الأمريكية، وفوق هذه الأراضي، تتواجد الصقور الجارحة والبُزاة[1]، والشمس الحارقة.

في كل مكان من صحرائنا، تتواجد شاخصات المرور لعربات نقل البضائع، في الطرق غير المأهولة. وقد صادفنا في هذه البلدة القاحلة رجالاً اعتادوا العيش فيها.

على بعد ميلين من وسط مدينتنا، اتجه رجل الى الصحراء، فشعر بالوحدة من منطقة موحشة، من مكانٍ مُقفرٍ من الأرض، بعيداً عن مؤانسة عقل انسان، ومن الأهمية أن يكون في وادينا رجال يتوافدون بالتدريج على هذه الصحراء، ولو لقضاء لحظات من حياتهم، ويفكرون، ويتكلمون حديثاً

(١) البزاة: جمع بازي

هادئاً، ويبذلون طاقاتهم. وعند الوقوف عند حدود الجهد الذي بذلناه في مدّ الشوارع وبناء المساكن في صمت وسكون الصحراء، فإن ماقمنا به يُعَدّ عملاً جريئاً. فقد اتجهنا الى هذه المنطقة المقفرة التي بلا تاريخ، أقمنا فيها وبنينا منازلنا ورسمنا بالتدريج خريطة عملٍ بمصطلحاتها ورموزها. قمنا بحفر آبار المياه، شققنا مجاري المياه تجوس الأراضي المقفرة. قمنا بأعمال الزراعة والحراثة، مع التمركز وسط البساتين التي أنشأناها.

لم تكن أشجارنا ذات طولٍ يكفي لتكوين الظلال الوارفة، وقد زرعنا بعض أنواع الأشجار التي لم نكن نزرعها من قبل، لبنائها الضعيف واستحالة أن تُعمِّر قرناً من الزمان، رغم ذلك فقد بدأنا بداية طيبة إلى حد ما. كانت جبّاناتنا قليلة، والقبور التي تضمها قليلة جداً. فقد اعتدنا دفن رجالٍ لاوزن لهم، وذلك لأنه لاوقت لدينا لابراز هؤلاء الرجال العظام، فقد كنّا مشغولين جداً في محاولات الحصول على الماء في الصحراء، وليس ثمة ظلّ ملحوظ في شتى أنحاء مدينتنا. وان كان لدينا ملعب يدعى ملعب (كوزموس). ولدينا مدارس عامة تحمل أسماء.. إمرسون وهاوثورن ولوويل ولونج فيلو وأديسون. وهناك خطان كبيران للسكك الحديدية، تمتد خطوطها عبر مدينتنا، ومن المدن الكبيرة بأمريكا، تأتي القطارات الينا باستمرار. وأياً كان الحال، لم نشعر أننا منسيون تماماً. ولدينا جريدتان ومجلس بلدي ومكتبة عامة، ثلثها مليء بالكتب. وعندنا قاعة للمحاضرات. وكنائس متعددة، ماعدا الكنيسة العلمانية المسيحية. وبكل منزل من منازل مدينتنا انجيل، وكثير من المنازل تقتني أعداداً من الأناجيل قد تصل إلى أربعة.

لعل انساناً ما أحسّ أننا أنشأنا هذه المدينة في قلب الصحراء، وأنها - لهذا - شيءٌ سيندثر، وأن حياتنا تمضي هباء، وأننا أجيال معاصرة للأرانب الأمريكية. لعل انساناً ما، له وجهة نظر في الصباح، ووجهة نظر مغايرة في المساء. وبكل المقاييس، فقد تشكلت قبة ساحة القضاء كيفما اتفق لتكون على شكل القبة، فبدت عديمة الذوق وزائفة، فليس ثمّة أهمية لانشاء

قبةٍ في صحرائنا، ومزرعةُ العنبِ التي نملكها، كانت صغيرة جداً فلم تؤثر في شيء بالنسبة لما كنا نحاول أداءه في الصحراء، وهي تقليد فج لما هو كائن في روما واليونان.

لنا عُمْدة، لكنه لم يكن ذا أهمية، ولايُوحي مظهره بأنه عُمدة، انما يُوحي بأنه مزارع، وهو مزراع فعلاً، لكنه اختير كعمدة.. لم يكن في مدينتا رجال عظام، لكننا جميعاً اتجهنا بامكانياتنا الى انجاز شيء يكاد يكون عظيماً ولم يكن عمدتنا يواصل النقاش مع مزارع سلوفاني من (فوولر) يتكلم الانجليزية بصعوبة، لم يكن عمدتنا رجلاً متعجرفاً، كان يشرب أحياناً مع أصدقائه، ويلذ له أن يحكي لخُلاَّنِهِ كيف يحفر للحصول على الماء، كيف يُشذِّب دوالي كروم العنب ليحصل على محصول جيد. وبصفةٍ عامة، يمكننا القول إنّه شخص مدهش. ومن البديهي أنْ يكون لنا عمدة، ومن البديهي أيضاً أن يكون شخص ما، هو العمدة.

مع ذلك، هناك أمر صغير يُثير شجوننا كثيراً حول مشروعنا. فلم يكن المشروع على نطاقٍ واسع، لم يكن على نطاقٍ متوسط الحجم، وليس ثمة شائبة لشيءٍ ما، فيما نقوم به. ليس مشروعنا ذا صبغةٍ علمية، وليس جامداً، مثل مشروع تنمية المدينة على نحو مُرْضٍ. وما من أحد فطن إلى أهمية الرسالة، وأغلب الكلام الغث، حتى الذي يتلفظ به عُمدتنا في المناسبات العامة كان يُؤدي الغرض منه. كان كلاماً معنياً بالتقدم، وفَهِمَ أهلنا أن المقصود هو تبليط مدخل قاعة المدينة الذي يُعتبر ممرّاً للمشاة، وشراء سيارة فورد للعمدة، من أموال مدينتنا.

ومن أكبر التجار عندنا، رجل يدعى كيمبال، الذي يستهويه التلكؤ قليلاً في مخزنه الكبير الرئيسي، وقد وضع قلم الرصاص على أذنه اليسرى، وعن طيب خاطر، ينتظر زبائنه بنفسه، رغم أن لديه دستتين من الموظفين النشيطين، الذين يعملون لصالحه. وقد تأكد لي أنهم ينشطون في فصل الشتاء، وفي فصل الصيف الطويل اذا ما تناولوا بعض جرعات من الدواء،

يرجع سبب ذلك الى أن المدينة بأكملها تنام أوقات العصر اذ ليس ثمة شيء يُمكن عمله وقتئذ. ويُعَدُّ هذا السلوك سائداً في شتى أنحاء مدينتنا، مّما أعطاها طابعاً بهيجاً، كما لو كنا نخوض تجربة، دون التأكد تماماً من أحقية تواجدنا في الصحراء أكثر من أحقية تواجد الأرانب الأمريكية والضفادع الجبلية القرناء. كما لو كنا قد اعتزمنا حقاً أمراً ما، وأوشك أن يكون كبيراً جداً، قد يُحْدِثُ في النهاية تغييراً عظيماً في تاريخ البلاد.

في نفس الوقت، ظهر بيننا نابغة يقول إننا سنغير تاريخ البلاد، وإننا سنحقق ذلك من الزبيب، وأنه ينبغي علينا أن نُغيِّر من عاداتنا في تناول الطعام، بكلّ طريقةٍ ممكنة.

لم يعتقد أحد أنه مخبول، بارتدائه نظارة واظهاره الأهمية. بدا بهيئةٍ يُطلق عليها الناس عندنا هيئة رجل متعلم، وأيُّ رجلٍ نال قسطاً من التعليم، وأيُّ رجلٍ التحق بجامعة وقرأ كتباً، فلابد أن يكون رجلاً مهماً. لقد درس الرجل علم الاحصاء والأسلوب الاحصائي في استنتاج المعلومة. وأثبت رياضياً أنه يستطيع أداء كلّ شيءٍ مّما يقول. قال:

- يحتاج وادينا الى نظام يُحقق الرَوَاج للزبيب كعنصرٍ رئيسي للغذاء الشعبي.

وقال إنّه يسعى لتعميم هذا النظام ليكون مناسباً لوادينا، كانت خُطَبُهُ بليغة، في المجلس البلدي وفي اللقاءات الشعبية بالمدن الصغيرة لبلادنا، وقال إننا نعلم أن أمريكا اعتادت على تناول الزبيب يوماً بعد يوم، وينبغي علينا أن نُعلّم أوربا وآسيا، وربما استراليا، أن يأكلوا الزبيب، وقال إننا اذا ضربنا مثلاً بالصين، لنجعلها تأكل من زبيبنا، فإن وادينا سيصبح من أغنى الوديان في العالم بأسره. وقال: - إن الصين تكتظ بالصينيين.

وحدَّد العدد الحقيقي للصينيين في الصين، كان رقماً هائلاً، ولم يعرف جميع المزارعين المتواجدين في المجلس البلدي ماإذا كانوا يُؤيدون أم يُعارضون. وقال إنّه اذا نجحنا في اقناع كل صيني على قيد الحياة بتناول

زبيبةٍ واحدةٍ فقط، واحدةٍ فقط، انتبهوا، ووضعها في كل اناء أرزٍ يطبخه، فان النتيجة، حينئذ، أنه يمكننا تصريف كل الزبيب الذي نُنتجه وبسعرٍ عالٍ. ويصير لكل مواطن في وادينا رصيد في البنك، فيقدر على شراء كل مايحتاج اليه من السلع الضرورية، التي تتناسب مع الحياة العصرية... أحواض الاستحمام، مكانس السجاد، أجهزة كهربية منزلية، وسيارات.

وقال:

ـ ان للزبيب مذاقاً حلواً. والناس مُغرمون بأكل الزبيب. ولأن الناس مُغرمون بأكل الزبيب، فهم يدفعون المال للحصول عليه وهم سعداء. لكن المشكلة أن الناس أقلعت عن عادة أكل الزبيب، وذلك يرجع الى أن بائعيه في طول البلاد وعرضها لم يعودوا يعرضون الزبيب لعدة سنوات، وحين يعرضونه، فان الزبيب لايُعبأ في عبواتٍ جذابة.

وقال:

ـ نحتاج الى جمعيةٍ لانتاج الزبيب، لها قسم تنفيذي مُجهَّز بتعبئة مركزية، ومركز للتوزيع، ويكون للجميعة اسم تجاري خاص بزبيبنا، تنشر اعلاناً في صفحة كاملة من (الساتر داي ايفننج بوست) والدوريات الأخرى، تُخطط للوصول إلى الحد الأقصى من المبيعات، وباختصار، يكون من اختصاصها عمل كل شيء. واذا مااتصل مزارعونا بجمعية الزبيب تلك، فإنّ الجمعية تتولّى القيام بكلّ شيء، وتصبح مدينتنا من أكثر المدن ازدهاراً في كاليفورنيا، ويصبح وادينا من أغنى المراكز الزراعية في العالم.

واستخدم في حديثه كلماتٍ ذاتِ معانٍ كبيرة، مثل: التعاون، الانتاج بالجملة، الكفاءة العصرية، علم النفس المعاصر، وسائل الاعلان الحديثة، طرق التوزيع المتطورة، ولم يفهم المزارعون جميعهم ماكان يتحدث عنه.

كان الرجل خطيباً، متخصصاً في الاحصاء، ألمعياً. لقد نسيتُ اسمه، ونَسِيَ كلٌّ من في وادينا اسمه، لكنه أحْدَثَ وقتذاك نوعاً من الحركة، وبدا، لأول وهلةٍ كما لو أنه ذو رأيٍ سديد.

درس محرر (المورننج ريبلكان) اقتراح هذا الرجل فجعله اقتراحاً مسموعاً، ووصف محرر (الإيفننج هيرالد) الاقتراح بأنه اقتراح جيد، وأيّده عُمدتنا، فحدثت ثورة في ربوع وادينا كلّه. أتى المزارعون بهمة ونشاط، من شتى أنحاء وادينا الى المدينة، احتشدوا في مجموعات صغيرة وكبيرة أمام المباني العامة، تحدثوا عن هذه الفكرة، فكرة أن نجعل الزبيب سلعة رائجة.

وسار كلُّ شيء على نحوٍ صحيح.

إنّ الغرض الأساسي من انشاء (جمعية الزبيب)، هو تجميع كل زبيب وادينا، وبعد أن يتحقق الطلب عليه من خلال اعلانٍ شامل، يُعرض للبيع بسعرٍ يُغطي كلّ تكاليف الجمعية، ويُخصَّص جزء يسير للمزارعين أنفسهم. حسناً، لقد ذاع اسم الجمعية، وسُمّيت (جمعية زبيب غادة الشمس)، أُقيم بمدينتنا مبنىً من ستة طوابق لجمعية زبيب «غادة الشمس» وأقيمت وحدة كبيرة للتعبئة والتوزيع، اشتملت على أدق الآلات الحديثة، تولّت هذه الآلات عملية تنظيف الزبيب ونزعه من عروق العناقيد، كانت الوحدة بكاملها مثالاً رائعاً للنظام والكفاءة.

في هاتيك الأيام، كنتُ اتجهُ كلَّ خميسٍ الى (كتاب) في (برودواي)، وأحصل على اثنتي عشرة نسخة من (الساتر داي ايفننج بوست)، كانت المجلة في تلك الأيام تصدر في حجمٍ سميكٍ جداً، وأحياناً تزن الاثنتي عشرة نسخة منها أكثر من خمسةٍ وعشرين رطلاً، اعتدتُ حملها في كيسٍ مغلق، والسيرَ بهذا الحِمْل الذي تنوء به كتفي. ولاأعرف السبب الذي يضطرني الى الضجر من بيع (الساتر داي ايفننج بوست)، لكنّي أفترض هذا، بدافع ماأعرف عن (بنيامين فرانكلين)[1] التي عثرتُ عليها في فيلادلفيا، وبدافع رغبتي في تناول نسخةٍ من المجلة معي الى البيت، وتأمّل اعلانات

(١) بنيامين فرانكلين: مؤسسة طباعة ونشر أمريكية

السيارات واطارات (فيسك) والبطاريات الصغيرة وأنواع المساحيق. وأرى أني أظفر دائماً بقراءة قصص جورج أجنيو باستمرار.

ذات خميس، مساءً، حصلتُ على نسخة من (الساتر داي ايفننج بوست)، فوضعتها أمامي على منضدة الطعام، قلبتُ الصفحات وأنا أنظر الى الأشياء المصنوعة والمُعْلَن عنها في بلدنا، في صفحةٍ ما، قرأتُ بعض العبارات: هل حققت قوتك اليوم؟ وهناك اعلان على صفحة كاملة عن جمعية الزبيب الخاصة بنا. شرَحَ الاعلان بلغة انجليزية مقنعة، أن الزبيب يحتوي على عنصر الحديد، ومن الضروري أن يأكل الناس كيساً بخمسة سنتات، من زبيبنا، بعد ظهر كل يوم. يقول الاعلان: إنه يُزيل الارهاق. وفي أسفل الصفحة، ظهر اسم جمعيتنا، وعنوان الشارع، واسم مدينتنا، ووضح جلياً أن جهودنا لم تضع هباءً في البرِّية، فقد طُبع اسم مدينتنا في (الساتر داي ايفننج بوست).

توالى صدور هذه الاعلانات بانتظام في (الساتر داي ايفننج بوست)، ومن المدهش أن بلدتنا الصغيرة أصبحت مكاناً ذا صيت، بما يعنيه هذا من أنه المكان اللائق بأن يعيش فيه الناس حقاً، وبدأت الشعوب تسمع عنّا وتعرفنا. كان مُكْلِفاً جداً، أن يظهر لنا اعلان في صفحة كاملة من (البوست)، وفي الوقتِ نفسه، اعتاد الناس أكل الزبيب، وهذا هو بيت القصيد.

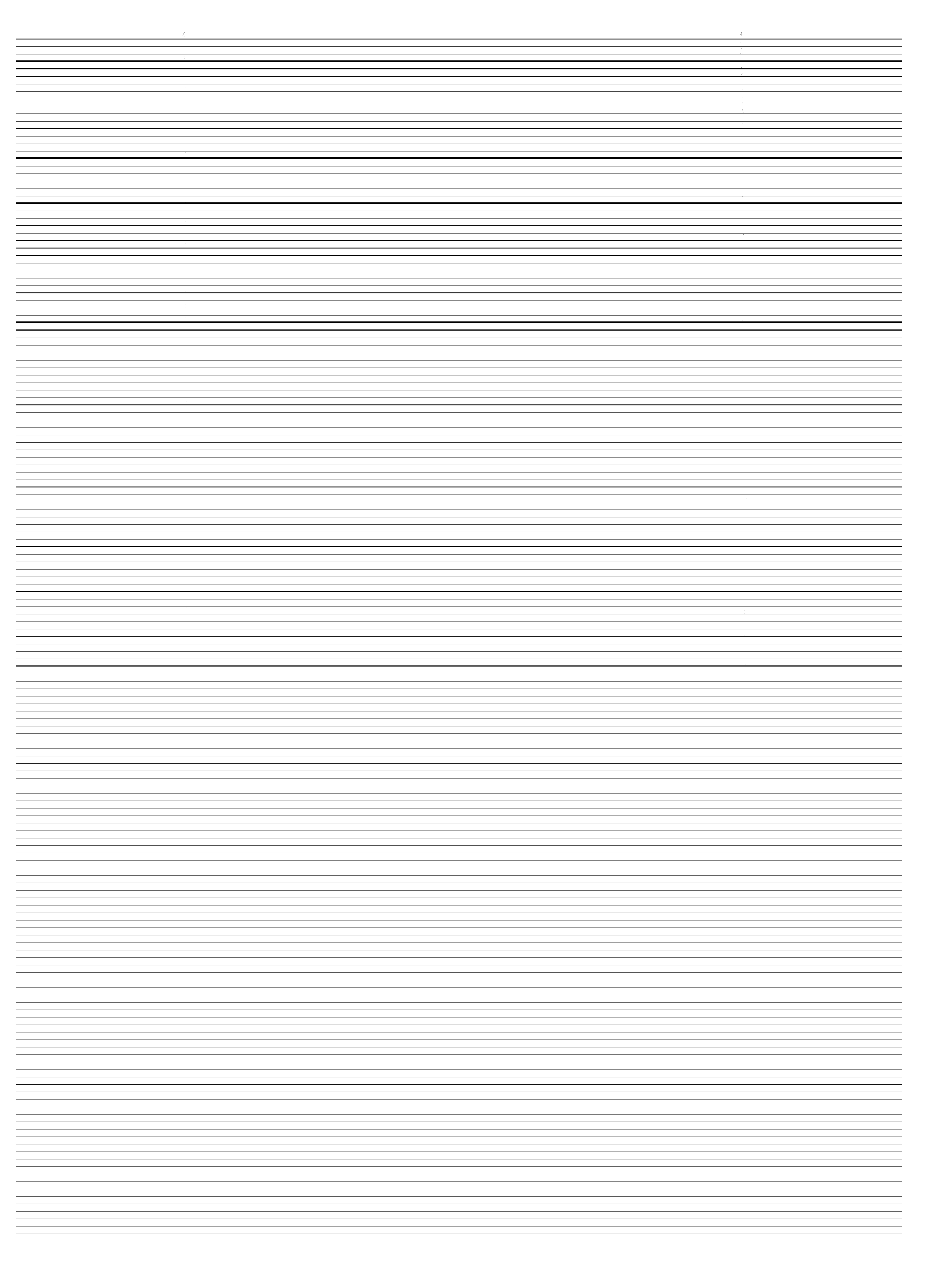
ظلّوا يأكلون الزبيب فعلاً، لمدةٍ محدودة. وبدلاً من صرف خمسة سنتات في شراء زجاجة كوكاكولا أو مُلبَّس، اشترى الناس أكياس الزبيب الصغيرة، وبدأ سعر الزبيب يرتفع بعد عدة سنوات، وفي الوقت الذي ابتهجت أمريكا كلّها بالنجاح العظيم، ارتفع سعر الزبيب كثيراً، لدرجة أن المرء الذي يمتلك عشرة فدادين فقط من كروم العنب، صار يَعَدُّ امرءاً ذا أهميةٍ ونفوذٍ، ومن المُزارعين الذين يملكون عشرة فدادين فقط، من اشترى سيّارة من الطرازات الحديثة، وراح يستخدمها في بلدتنا.

افتخر كل فرد من أهالي بلدتنا بجمعية الزبيب الخاصة بنا، وسارت الأمور على خير مايُرام، وارتفعت الأسعار، حتى أن الفرد يضطر الى دفع نقودٍ كثيرةٍ في شراء قطعة أرضٍ صغيرة في الصحراء. ثم وقع أمرٌ ما. ليس بسبب فشل جمعية الزبيب الخاصة بنا. انه مجرد حدث. لقد توقف الناس عن أكل الزبيب، ربما يرجع السبب إلى أنه ليس ثمة نجاح أكثر من ذلك، أو ربما يرجع السبب إلى أن الناس تعبت من أكل الزبيب. وثمة أشياء أخرى يمكن للناس أن يشتروها بالسنتات الخمسة ليأكلوها، مثل الخبز واللبن واللحم وأصناف أخرى. على أية حال، توقف الناس عن أكل الزبيب. ولم تزل اعلاناتنا تُنشر في (الساتر داي ايفننج بوست). ولم نزل نسأل الشعب الأمريكي عمّا اذا كان يريد القوة، لكن هذا الأسلوب لم يُحرز تقدماً. تكدّس زبيبٌ بمخزن (غادة الشمس) أكثر مما استطعنا بيعه، اتجهنا الى الصينيين، ولكن لافائدة، حتى لو وضعوا ثلاث زبيبات في كل قِدْر أرزٍ مطبوخ.

بدأ سعر الزبيب يهبط، ففكرنا في وسائل جديدة لاستخدام الزبيب. استعنّا بالكيميائيين، صنعنا مشروب الزبيب. ومن المفروض أنه في نفس جودة مشروب الاسفندان، على الأقل، لكنه لم يكن كذلك. ولم يُعمِّر طويلاً. فلم يكن مذاقه يُشبه مذاق المشروب أو العصير بأيّ حالٍ من الأحوال. كل ما هنالك، أن له قوام العصير ليس إلاّ. كان إداريو الجمعية يائسين، أرادوا التصرف في الزبيب الفائض، كانوا على استعداد لخداع أنفسهم، اذا لزم الأمر، وتصديق أن وادينا يُمكن له تحقيق النجاح في تصنيع وتوزيع عصير الزبيب، صدقوا هذا لفترة معينة. لكن الذين يشترون العصير لايصدقون هذا. وظلّ سعر الزبيب في انخفاضه، الى درجة كما لو كنا ارتكبنا خطأً باديء ذي بدء، بالبقاء في هذا المكان المقفر، وانشاء مدينتنا فيه، الظاهر أننا كنا أنداداً للأرانب الأمريكية.

اكتشفنا أن الشيء نفسه حدث في كلّ البلاد. فقد انخفضت الأسعار في كلّ مكان، وليس لدينا قدرة على تحقيق شيء آخر، أو طريقة جديدة لكتابة اعلاناتنا بمهارة، أو التفكير في جعل عبوات الزبيب أكثر جاذبية، لم نعد نأمل في أسعارٍ أعلى مما حصلنا عليها. وبدا مبنى الطابق السادس كئيباً، اختفى الحماس القديم كله، أصبحت دار التعبئة الضخمة التي نملكها شيئاً كمالياً غير ذي جدوى في البريَّة، وكل آلاتها القوية، أصبحت خردة، فأدركنا أن الفكرة الأمريكية العظيمة قد مُنيت بفشل. فنحن لانستطيع أن نُغيِّر تذوق الانسان. مازال الخبز مفضلاً على الزبيب. ولم نُفلح في اجبار الصينيين على وضع زبيبةٍ واحدة في قدور الأرز المطبوخ. فقد كانوا قانعين بالأرز الخالي من الزبيب. وأدّى ذلك إلى أن نأكل نحن زبيبنا.

كان غريباً حقاً أن نتعلّم نحن أكل الزبيب. وقد تحدثنا طويلاً عن نسياننا للشيء الذي استطاعوا فعلاً أن يأكلوه. تعلّمنا أن نطهو الزبيب. كان طهيه جيداً وله مذاق حلو اذا أُكِلَ بالخبز، لقد أكلنا جميعاً الزبيب، نحن القاطنون بالوادي من أقصاه لأقصاه كطعامٍ بعد ماعجزنا عن بيعه. لم يستطع الناس شراء الزبيب لأنهم كانو مرفَّهين، ونحن أكلنا الزبيب لأن الآخرين كانوا مرفَّهين.



الشـــابُ الجَسُـــور

اللاعـب علـى الأرْجُـوحَـة

(١) نــــوم

يرنو الساهر الى مايحفل به العالم، باتساعه وامتداده. يُمرِّن نفسه على الضحك والمرح، واللمز، ونهاية كل شيء.. روما وبابل. كزّ الأسنان. أعمال الذاكرة. البراكين شديدة السخونة. شوارع باريس، سهول خيريكو، وأمور كثيرة أكثر انفلاتاً من المتزلج بلا ضوابط، وصالة عرض للألوان المائية، حيث البحر والأسماك ذات العيون المحدقة. سيمفونية، ومنضدة في ركنٍ ببرج ايفل، وموسيقى الجاز بدار الأوبرا، ومُنبِّه، ورقص مرهق بايقاعٍ سريع، وحديث الى شجرة، ونهر النيل، وشكوى ديستويفسكي، والشمس الدكناء.

ان هذه الأرض ـ حسبما تبدو لانسانٍ يعيش فيها ـ شكلٌ بلا وزن، بكاءٌ على الجليد، وموسيقىً حالمة. الصورة المكبرة ضعف حجم الكون، والسحب السوداء، وتحديقُ نمرٍ أرقطٍ محبوسٍ في قفص، انه الفضاء الأبديّ. ومستر اليوت بأكمامه المشمّرة... يصنع الخبز، وفلوبير وجي دي موباسان، قافية بلا كلمات للمعنىَ البِكْر، وفنلندا، والرياضيات فائقة الاحكام، مواضيع متناثرة كبقايا بصلٍ أخضرٍ بين الأسنان. والقدس، طريق الى التناقض.

الأغنية المُعبِّرة عن أحاسيس الانسان، بهمسٍ خافتٍ مستترٍ داخل شخص ما، غير معروف على وجه اليقين. الريح تهب على حقول القمح. لعبة الشطرنج. صمت الملكة. الملك كارل فرانز. المارد الأسود. السيد شابلن يبكي. ستالين، وهتلر، واليهود المحتشدون.

غداً يوم الاثنين، ولارقصَ في الشوارع.

أوه، انها لحظة خاطفة انتهت من حياتنا. هاهي الأرض، مرة أخرى، تبدو على حالها.

(٢) يـقـظـــة

تهيّأ كالمعتاد، وحلق ذقنه، مقطباً مابين حاجبيه وهو ينظر في المرآة... منتهى الوسامة. سأل نفسه: **أين ربطة عنقي؟** (هو لايملك سوى واحدة). قهوة وسماء رمادية، ضباب المحيط الهادي، تكرر ذلك مراراً، اليوم، نثراً وشعراً. هبط الدرج بخفة متجهاً الى الشارع وبدأ السير. وخطر له أنها قد تكون اغفاءة ما، تلك الحالة التي نُدرك بها أننا نحياها. هنالك فقط، في تلك الحياة التي هي والموت سواء: **هل تتقابل نفوسنا بالعالم الآخر، بالله، والقديسين، وأسماء آبائنا، بجوهر الأمور البعيدة؟ مثلما تتحد العصور في ذات اللحظة، فان الجسم الضخم يصبح الذرة الأزلية الملموسة متناهية الصغر.**

سار نهاراً وهو شديد الانتباه، مُحْدِثاً جَلَبَةً محدودةً بكعبيه، وقد شاهد بعينيه سلامة الشوارع والمباني، وبعض الصدق في تناول حقيقة الأمور. وخطر له ـ وهو يائس ـ أن يغني، ويطير في الهواء بأكبر قدر من السلاسة، الشاب الجسور على الأرجوحة الطائرة، وسخر بكل ماأوتي من قوة.

إنه حقاً صباح ممتع: رمادي، وبارد، وغير سار. صباح للنشاط والحيوية. وأخذ يردد:

آه، يا إدغار جيست، كم من الوقت أقضيه مع موسيقاك؟

عثر في «ميزراب» على قطعة نقود. وأيقن أنها بنس، يرجع تاريخه إلى عام ١٩٢٣ . وضعه في كفه، وأخذ يفحصه بعناية، متذكرا أن العام والمناسبة للنكولن، الذي سُكَّ جانب وجهه على العملة. وليس ثمة شيء يمكن ابتياعه ببنس. فكر ملياً: **سأشتري سيارة، وأرتديّ زيّاً فاخراً، وأزور ساقطات الفندق، أشرب وآكل، ثم أعود الى طبيعتي. أو أُسقط**

العملة في شقٍ وأزِنُ نفسي. من الأفضل أن تكون فقيراً وشيوعياً - ولكن من المخيف أن تظل جائعاً - ماالذي تشتهيه، وأيّ أصناف الطعام يستهويك؟ البطن خاوية.

انه في حاجة ملحة للطعام. وكل مايتناوله من وجبات لايعدو الخبز والقهوة ولفافات الدخان، والآن، لم يعد لديه الخبز الكافي. والقهوة بدون خبز لاتصلح بالمرة لوجبة عشاء بسيطة، وليس في الحديقة نباتات يمكن طهيها مثلما تُطهى السبانخ.

واذا ماتوخّينا الصدق، فقد كان نصف جائع، وهنالك كتب لاحصر لها ينبغي عليه أن يقرأها قبل أن يموت. وتذكر شاباً ايطالياً في مستشفى بروكلين، انه موظف صغير مريض يدعى موليسا، فقال يائساً:

أحب أن أرى كاليفورنيا مرة واحدة قبل أن أموت. وفكر ملياً: **ينبغي أن أُعيد قراءة هاملت على الأقل، أو حتى هوكليبري فلين.**

عندما يفكر في الموت، يكون في منتهى اليقظة. واليقظة الآن، حالة متوقعة لصدمة عصبية تردّه الى واقع الحياة. وهو يرى أن الشاب يمكن أن يموت من الجوع دون أن يُثير انتباه أحد. إن الماء والكلام العادي يشكلان النهاية، بملئهما الفراغ الشاسع المصطنع، لكنهما غير كافيين. واذا كان هناك عمل يمكن أن يؤديه ليحصل منه على نقود، مثل عملٍ تافهٍ في مجال التجارة. أو اذا قُدِّر له أن يجلس على مكتبٍ طوال النهار ويجمع أرقاماً تجارية، يطرح ويجمع ويقسم، فانه في هذه الحالة، ربما لايموت. ويستطيع شراء كل أصناف الطعام: أطعمة لامذاق لها، مستوردة من النرويج وايطاليا وفرنسا، أصناف شتى من اللحم البقري والضأن والسمك والجبن والعنب والتين وكُمَّثرى والتفاح والبطيخ، التي يُفضلها عندما يريد التغلب على جوعه.. حيث يضع عنقوداً من العنب الأحمر في طبق الى جانب حبتي تين أسود، وحبة كمثّرى صفراء كبيرة، وتفاحة خضراء. ويُمسك بقطعة

بطيخ ويُقرِّبها من فتحتي أنفه عدة ساعات. وعليه أيضا أن يشتري أرغفة بنية كبيرة من الخبز الفرنسي، وخضراوات من كل الأصناف، ولحماً.

ومن فوق تل، نظر الى المدينة التي تنتصب في شموخ جهةَ الشرق، بأبراجها الهائلة المكتظة بمن هم على شاكلته. حيث يجد نفسه مطروداً منها، بلا مبرر. وفي أغلب الأحوال، لايعتريه أدنى شك في أنه غير مسموح له بالدخول. وغالباً ما يُراهن، بطريقته الخاصة، على أن للحياة مفارقاتها، أو ربما يُراهن على أنه يعيش في الزمن الخطأ، شاباً في الثانية والعشرين من عمره، ومطروداً من المدينة على الدوام. وظنَّ نفسه قد خلا من الحزن. حدّث نفسه قائلاً:

في القريب، ينبغي أن أكتب التماساً للسماح لي بالحياة. وقَبِلَ فكرةَ الموتِ المُقدّر له ولأمثاله، معتقداً أنه مازال أمامه فرصة متاحة كي ينام ليلة أخرى على الأقل. وكان قد دفع قيمة الايجار ليومٍ آخر. وبعد ذلك، يتوجب عليه أن يُيَمِّم وجهه صوبَ المكان الذي يذهب اليه أمثاله من الرجال الذين لامأوى لهم. كما يتوجب عليه التردد بانتظام على جيش الخلاص - يغني للاله والمسيح (كارهاً لنفسه) - لينقذاه، فيأكل وينام. لكنه موقن بأن لافائدة، فحياته من نوع خاص، وليس من الصواب أن يُفسد هذه الحقيقة. وأي حياة غيرها ستكون أفضل منها.

وعلى الأرجوحة الطائرة في الهواء، ردّد في خاطره، وهو مندهش لما آلت إليه حاله، ومتسلياً بهذا الاندهاش: **أرجوحة الى الله، أو الى لاشيء، أرجوحة طائرةٌ في الأزل، أياً كانت صفتها**..

وطفق يدعو ويبتهل، كي يكون في مقدوره أن يطير بخفة ورشاقة.

قال: معي سنت واحد. انه عملة أمريكية. وفي المساء، أجْلُوه حتى يتوهج كشمس، ثم أُعيد النظر.

مشيٌ في تلك المدينة، بين الأحياء. يوجد مكان أو اثنان يمكنه التوجه اليهما. اكتأب لمظهره، حين رأى صورته في الألواح البللورية لنوافذ المخازن.

انه لايبدو في قوته الطبيعية مثلما كان يشعر. انه، في الواقع، يبدو واهن القوى، الى حدٍ ما، في كل جزءٍ من أجزاء جسمه، في رقبته، وكتفيه، وذراعيه، وساقَيْه، وركبتيه. ورأى أن هذه الهيئة لن تُفيده في شيء. وجاهد ليجمع كل أجزائه المفككة، وانتصب معتدلاً متماسكاً، وان لم تَخْلُ محاولته من التصنّع والتوتر.

مرَّ بمطاعم فاخرة كثيرة، مُعْرِضاً عن القاء نظرةٍ عابرةٍ على ما بداخلها، حتى وصل في النهاية الى المبنى الذي يقصده، فدخله. ركب مصعداً قاصداً الدور السابع، ومنه دَلَفَ الى صالة، ومن بابٍ مفتوحٍ اتجه الى مكتب مصلحة الاستخدام، فألفى اثني عشر رجلاً. قصد ركناً يقف فيه، منتظراً دوره لاجراء المقابلة. وبعد انتظار طويل، أُعطي له هذا الشرف الكبير. سألته فتاة مُوزّعة الفكر، وفي الخمسين من عمرها. قالت:

ـ والآن، احكِ لي عمّا يُمكنك عمله؟

كان مرتبكاً. قال بنبرة تُثير الشفقة:

ـ يمكنني أن أكتب.

قالت الفتاة المتقدمة في العمر:

ـ هل تعني أن خطك جميل؟

أجاب:

ـ حسنا، أجل. لكني أقصد أن في مقدوري أن أكتب.

قالت الفتاة، غاضبة: ـ ماذا تكتب؟

قال ببساطة: ـ النثر.

بعد صمتٍ طويل، قالت الفتاة:

ـ هل يمكنك أن تكتب على الآلة الكاتبة؟

قال الشاب: ـ طبعاً.

قال الفتاة بلباقة:

- حسناً. لدينا عنوانك، وسنتصل بك. ولاشيء مطلوب هذا الصباح، لاشيء اطلاقاً.

حدث نفس الشيء في مصلحة أخرى. غاية ما في الأمر أنه سُئِل عدة أسئلة من شاب متغطرس يُشبه الخنزير الى حدٍ كبير. وبعد المصالح، توجه الى المخازن المتعددة الكبيرة، فقوبل بكمٍّ هائلٍ من الغطرسة، وبشيء من الاذلال لشخصه، وفي النهاية يتضح من التقرير أن العمل غير مناسب. لم يشعر بالاحباط قط. ومن الغريب، أنه كان لايشعر بأن له يداً في الغباء اطلاقاً. انه مجرد شاب يحتاج الى مال يعيش به، ويواصل حياته، وليست هنالك طريقة للحصول عليه غير أن يبحث عن عمل. ولكن ليس هنالك عمل مُتَاح. أي عمل. انها ليست مشكلة نظرية تلك التي تصادفه، ويرغب في حلها هذه الأيام. وان كان سعيداً الآن بإغلاق الحلقة بإحكامٍ حول المشكلة.

وبدأ يسعى الى تحديد مسارٍ لحياته. وباستثناء لحظات، كانت الحياة فيها بسيطة للغاية، فانه في الوقت الراهن، وفي تلك اللحظة الأخيرة، بدأ يُوقن أن ثمة شيئاً غير دقيق على النحو المَرْجُو.

تردَّد على مخازن ومطاعم لاحصر لها، وهو في طريقه الى جمعية الشبيبة المسيحية، حيث سارع بالتقاط ورقة وقلم وملأ استمارة استخدام. عكف على كتابتها ساعة كاملة. وفجأة، شعر بدوار من هواء المكان الفاسد، ومن الجوع. وبدا كما لو أنه يسبح بعيداً عن نفسه مسافات شاسعة، فترك المبنى بسرعة، وعند الميدان الرئيسي للمدينة، في الجهة المقابلة لمبنى المكتبة العامة، شرب ربع جالون من الماء، فأحس بانتعاش. وفي وسط شارعٍ شُيِّدت أبنيته بالطوب الأحمر، وقف رجل مسن وهو يتناول كمية من لُبَاب الخبز من كيسٍ ورقيٍ كبير، ويُلقي بها الى الطيور الملتفة حوله، باشارة لطيفة وحركة خفيفة بيده. ومن حوله تتزاحم النوارس والحمام، وطيور أبي الحناء.

هاجس غامض يدفعه الى سؤال العجوز أن يُعطيه بعضَ لُبَاب الخبز، لكنه لم يسمح لنفسه حتى لهذا الهاجس أن يحتل جانباً من تفكيره. قصد المكتبة العامة، واستغرق في قراءة (بروست) ساعة كاملة، شرد بعدها بعيداً، هذا الشرود الذي يعاوده من فَيْئةٍ لأخرى، فسارع بالخروج. وشرب ماء كثيراً عند فسقية الميدان، وبدأ سيره الطويل الى غرفته.

قال لنفسه: **سأذهب وأنام طويلاً، فليس ثمة شيء يُمكن عمله.**

انه متعب الآن، ومتهالك للغاية، بالدرجة التي تجعله لايخدع نفسه بأنه على مايرام، أو أنه نشيط ورشيق. وكما لو أنه وحدة منفصلة، راودته دعابات صريحة ووقحة عن معاناته الجسدية الواقعية جداً. وصل الى غرفته بعد الظهر، فأعدَّ في الحال القهوة على موقد الغاز الصغير. لم يجد لبناً في الاناء، ونفد السكر الذي اشتراه منذ أسبوع بنصف جنيه. فشرب قدح السائل الأسود الساخن، وهو جالس على سريره مبتسماً.

وكان قد سرق من جمعية الشبيبة المسيحية دستة أوراق خطابات آملاً في أن يستكمل كتابه، لكن ليس في جعبته شيء ليقوله. بدأ يصقل البنس الذي عثر عليه في الصباح، وان كان هذا السُخْف يؤثر بطريقة ما على مايبغيه من بهجة غامرة. ولم تنجح العملة الأمريكية في أن تكون لامعة مثل هذا البنس. كم بنساً يحتاجه ليواصل الحياة، ألا يوجد لديه شيء زائد عن الحاجة، فيبيعه؟ جال بنظره في الغرفة الخالية. لا، فقد اختفت الساعة، وكتبه أيضاً. كل الكتب القيمة، باع تسعة منها ليحصل على خمسة وثمانين سنتاً. كان مجبراً، وندم بعدها على تفريطه في كتبه. وقد باع أفضل هذه الكتب بدولارين، هذا ماحدث. لم يفكر قطّ في ملابسه. أما الكتب، فالموقف منها مختلف. وقد أدّى به الغضب الى أنه لايُكِنُّ احتراماً للرجال الذين كتبوها.

وضع البنس اللامع على المنضدة، شاخصاً اليه ببهجة متواضعة، وقال محدثاً نفسه: **كيف يمكنه أن يبتسم؟**، نظر الى الكلمات، دون أن يقرأها:

ابلوريبسباس أونوم، سنت واحد، الولايات المتحدة الأمريكية. ثم أدار الوجه الآخر للبنس، ورنا الى صورة لنكولن، والى الكلمات: نؤمن بالله وبالحرية ١٩٢٣ .

قال لنفسه: **يالها من كلمات رائعة!.**

انتابه كسل، وأصابه اصفرار غطىَّ دمه كلَّه، مع احساس بالغثيان والتفكك. وقف بجانب فراشه وهو مذهول، فليس ثمة شيء يمكن عمله سوى النوم. وشعر لتوِّه أنه يسير بخطوات واسعة عبر سائل في الأرض، سابحاً بعيداً الى حيث نقطة البداية. وانكفأ وجهه على الفراش، وهو يقول:

أما كان ينبغي له أن يُعطي العملة لأيِّ طفل. حيث يُمكن للطفل أن يشتري أيَّ عددٍ من الأشياء ببنسٍ واحد.

في تلك اللحظة، استطاع أن يتخلّص من ثقل جسمه بخفةٍ واتقان، برشاقة شابٍ واقفٍ على الأرجوحة. في لحظة أزلية احتوى كلَّ شيء دفعة واحدة:

الطائرَ، والسمكَ، والقوارض، والزواحف، والانسانَ.

تموَّج محيطٌ مظلمٌ لاحدود له، وقد انطبع أثره أمامه. احترقت المدينة. وأخلَّت بالامن جماعات متزاحمة. تحلَّقت الأرض في البعيد، وبادراكه لما هو كائن، أدار وجهه الشاحب الى السماء الخالية، وقد أفلست نفسه من الأحلام، وفقد الحس تماماً.

أصدقاؤنا الفئران

برغم أنف قطتنا، في منزلنا فئران.

ليلاً، حيث الجو هادىء تماماً، والأضواء منطفئة، نسمع الفئران - ونحن قابعون في فراشنا - وهي تخرج من حجورها وتطأ الأرض الخشبية لمطبخنا، واذا ما أصغينا جيدا، سمعناها تتصارخ، وانه لمن بواعث التسلية أن نصغي اليها. وجميل جداً، فيما أرى، أن تكون في منزلنا تلك الفئران الهيّابة الكتومة الصغيرة. كما أرى أنه لكونها فئراننا، أي فئران خاصة بمنزلنا، فقد شعرتُ أنها جزء من حياتنا. انها فئران سارقة، تسطو على الطعام، ولكنها على أية حال تُكوّن فيما بينها أسرة، مثلما نحن أسرة، ومنذ عاشت معنا في منزلنا، شعرتُ بالتعاطف نحوها.

أحياناً، وأنا مصغٍ الى الفئران ليلاً، أشعر بأخي كريكور يُصغي معي. نمنا في نفس الغرفة، وكان سريره مجاوراً لسريري، فأصبحنا متجاورين، فاذا استيقظتُ في الظلام واستيقظ هو، رأيتُ أنه استيقظ لحدوث أمرٍ ما أثناء رقاده. ألفيته يُصغي معي للفئران، فقلت: - هل تسمعها، ياكريكور؟

ويقول كريكور: - صه. ستبدأ نشاطها الآن.

أحسستُ أن وراء يقظته في الظلام سبب ما. فاذا ماكان نائماً، فليس هنالك شيء. وهو يُنصت إلى الفئران، بعدما يتأكد من أننا نمنا وماعدنا منتبهين لحركتها.

وكلمة (مُوغ) التي تعني الفأر في لهجتنا، ليست اصطلاحاً علمياً في معناها، وانما تعني شكلاً بسيطاً للحياة الحافلة بالحذر والتوجس. وعندما يكون الطفل صغيراً وخجولاً، نُدلّله بهذا الاسم.

نعتقد أن فئراننا تتسم بالجُبْن والدُعابة؟ معاً، وليست مسببة لأيّ مرض، كما أننا لانعتقد أن تواجدها في منزلنا يُضر صحتنا أو يسرق غذاءنا. هي تقوم بقرضٍ غير مؤثرٍ هنا وهناك، وأحياناً نجد الفضلات ملقاة على الأرض، وهذا أسوأ مايمكن أن نقوله عنها. لم يُصب أحدنا بالملاريا بسبب الفئران، وقد قال كريكور ـ عندما تحدّث في هذا ـ إن الفئران اذا أصابتها الملاريا فسوف تموت على الفور قبل أن تُصيبنا بالجراثيم.

ولم يكن يتحدث بناءً على أسسٍ علمية.

مرة أو مرتين فقط، شاهدنا قطتنا وهي تُمسك فأراً. شاهدنا القطة وهي تلعب بالفأر، ثم وهي تأكله. وبينما يكون مؤلماً أن تجد كائناً حياً قد اغتصبت منه حياته، وبينما صوت العظام الصغيرة وهي تتكّسر يُصيبنا بالأسى، فان مايحدث يردُنا الى طبيعتنا حيث أنه حلال. فالقطط تشتهي أكل الفئران، وأصبح الابتعاد عن طريق القطط جزءاً من عمل الفأر. القطة كائن حي كالفأر، فقط هي من فصيلة أخرى أو ذات سلوك مغاير، وكلاهما له ذكاء فطري. وانه لمن الطبيعي أن تستعمل القطة ذكاءها لاصطياد الفئران، ومن الطبيعي أن يستعمل الفأر ذكاءه للابتعاد عن طريق القطط. والوضع بصفةٍ عامةٍ معقول ومقبول، فاذا ماوقع فأر بين أنياب قطٍ، كان ذلك اما نتيجة أن القط تحت وطأة الجوع أو الحنين إلى اللعب، قد اكتسب درجة خاصة من الدهاء، أو نتيجة أن الفأر، قياساً الى عمره أو اهماله الجسيم، لم يتسلح بالاحتراس الكافي. وعلى هذا، استحقت القطة أن تأكل الفأر، واستحق الفأر أن يموت.

من الصعب تحديد وجهة نظرٍ أخرى سليمة. وانه لمن التجني التعاطفُ مع الفئران والشعورُ بأن القطط مكروهة ومتوحشة أو أنها تتمتع بميزةٍ

ما، وذلك لأن لكل شيء فائدة وضرر. واذا أمعنت التفكير فيما حدث، فستدهش من القطة القادرة على اصطياد فأر. ليس من الانصاف اطلاقاً التعاطف مع الفأر، فهذا يدل على إلمامٍ محدودٍ جداً بقوانين الطبيعة التي تفتك بها الفئران وتلتهمها، ولكنني أفترض أنها تفتك وتلتهم نوعاً معيناً من الكائنات الحيّة الصغيرة، واذا هي لم تفعل ذلك بوسيلةٍ ما، ولاتأكل سوى الطعام الذي يأكله الناس، فينبغي أن تكون أفضل حالاً مّما هي عليه الآن.

كنتُ قد رأيتُ مصائد للفئران، لكني لم أُعِرْ أياً منها أدنى أهتمام، ولم أفكر في استخدام واحدةٍ منها لفئراننا. والآن، لدينا ثلاث مصائد. وقد عزمتْ أختي لوسي على تطهير منزلنا من الفئران.

أمسكتُ احدى المصائد في يدي وتفحصتها بدقة. رأيتُ بوضوح السلك القوي الذي سيهوي على الفأر ويسحقه حتى الموت، ورأيت السلك الملفوف لولبياً بحيث يتحرك إلى أسفل بقوةٍ هائلة. وعندما تستحوذ قطة على فأرٍ وتلعب به، فمن الصعب تخيّل حالة الفأر: شعوره، دهشته، خوفه، وأمله المفقود في الهروب، حيث تقسو القطة وهي تتسلّى بالفأر بوحشية وافتراس. ولكن، وبرغم كل تلك الملابسات، فكما قلت، يتولد لدى المرء شعور بأن العملية بِرُمَّتها مسألة خصوصية. ومن المستحيل أن تتولد الحاجة لاستعمال المصائد. ويكون اللولب المعدني وذكاء الفأر الفطري متساويين تماماً.

في البداية، اعترضتُ على استعمال المصائد. واندهشتُ من أخي كريكور الذي لم يُبدِ اعتراضاً، تملّى في المصائد ولم يُبدِ أيّ نوعٍ من الملاحظة للاعراب عن ضيقه، بطريقةٍ أو بأخرى، قلتُ بالأرمنية:

ـ ماذا ارتكبت الفئران؟ هي لم ترتكب أيّ ذنب.

وقالت أمي أنها عثرت على فأرٍ غريقاً في وعاء الخل، فتخلَّصتْ منه

وسكبته في الحوض. وقالت أنه من السُخْف تحمل الفئران لمجرد أننا نحب سماعها في الليل.

نُصِبَتْ المصائد وبداخلها قطع الجبن - وفي الصباح، وجدنا اثنتين اصطادتا فأرتين، ولكن احدى المصائد تزحزحت من مكانها، ولم يكن بداخلها فأر، كما اختفى الجبن. رأت أمي أن هذا أمر غريب جداً. قالت:

- لابد أنه فأر ماكر جداً.

كنتُ في منتهى السعادة لأن أحد فئراننا هرب وحيداً، وأتتني فكرة بأن هذا الفأر قد عاد الى الفئران الأخرى، وأخبرها أنهم وضعوا المصائد هناك، وبداخلها الجبن. أنتم تذهبون لتحصلوا على الجبن، فيُطْبِقُ عليكم شيء ما، ويقتلكم. لقد شاهدتُ ماحدث، حدث بالقرب مني، ولكنني جريتُ بأقصى سرعة. أريد أن تكونوا منتبهين من الآن فصاعداً، أريدكم أن تفتحوا عيونكم جيداً، لاتنخدعوا بقطعة الجبن التي لاتُوضع كما عهدناها في طبقٍ أو على رف. واذا رأيتم أيَّ سلكٍ مثبتٍ على قطعة خشب، اهربوا بعيداً عنها. انه فخ، يُرَاد به أن تُقتلوا. فمن الأفضل أن تظل جائعاً وتبقى حياً، على أن تنال قطعة صغيرة من الجبن في فمك، فتُقتل.

الفئران التي قُتِلَتْ، كانت متيبسة، ويمكن القول بأن أعضاءها عانت كثيراً قبل أن تموت.

من جديد، وضعتْ أختي لوسي، في المساء، الجبن في ثلاث مصائد. وفي الصباح التالي، وجدنا بداخل احداها فأراً، بينما المصيدتان الأخريان ليستا مستقرتين في موضعيهما، وليس بداخلهما فئران. شعرتُ أن فئراننا قد تعلمت بسرعة، فسُعِدتُ كثيراً.

في وقتٍ ما، أثناء الليلة التالية، كنتُ يقظاً، فأنصتّ للفئران. أصغيتُ لحظة قصيرة فلم أسمع شيئاً. ولم يكن أخي كريكور مستيقظاً. ثم سمعتُ صوت مصيدةٍ تُقفل. ودهشتُ مّما سيطر على الفئران. لماذا لم تتعلم حتى

الآن؟ ثم سمعتُ صوت المصيدة الثالثة وهي تُقفل. وبهذا المعدَّل، قدّرتُ فترةً أقلَّ من أسبوع، تُقتل خلالها كل فئراننا، ثم غلبني النعاس.

وفي الصباح، وجدتُ جميع المصائد في غير موضعها، ولم تُمسك احداها بفأر. وعلى مائدة الافطار، قال أخي كريكور:

ـ قرأت في كتاب أن بعض الفئران تعرف عمل المصائد فلا تنخدع بها، فتتخذ الطريق الخلفي حيث لايعمل اللولب، تأكل الجبن ثم تمضي لحال سبيلها. وفئراننا تفعل نفس الشيء.

حسناً، انه أخي كريكور. وبعد برهة، عاد الى غرفتنا آوياً الى فراشه. وفي ذلك الوقت، كنت شديد الانتباه. وكنت أفكر بترو في أمر المصائد، وفي فئراننا التي عثر عليها أخي كريكور حية بالقرب منّي وبدأنا نصفّر بصوت خفيض. وقال أخي كريكور:

ـ ذهبتُ لتثبيت المصائد.

نحن لانريد قتل هذه الفئران بالمصائد. وضعتُ لها الجبن على الأرض. سوف تأتي في الحال وهي فرحة، وسوف تأكلها، ثم تمضي. سوف نسمعها حين تأتي.

وبدأنا نُصغي للفئران، وبعد بُرْهَةٍ سمعناها وهي تخرج من جُحُورها. قال أخي كريكور:

ـ ليس صحيحاً مايُقال عن الجرائيم. هي نظيفة كالقطط. والأمر لايعدو شعورها بالجوع، تماماً مثل أيّ كائنٍ حي. لقد وضعتُ الجبن عند الجُحْر، ولسوف تجده الفئران.



الحلاق الذي
عضّ نمرُ السيرك رأسَ عمّه

قالت السيدة جاما أني في حاجة إلى قصّ الشعر، وقالت أمي أني في حاجة إلى قصّ الشعر، وقال أخي كريكور أني في حاجة إلى قصّ الشعر. ككل الناس يطلبون مني أن أقصّ شعري. ورأسي كبيرة جداً بالنسبة لغيري من الناس، سبعة وسبعة أثمان، أو ثمانية وسبعة أثمان.

قال الناس: ـ الشعر أسود كث.

وكلّ شخصٍ قال لي: ـ متى تذهب لتقص شعرك؟

هنا رجل أعمالٍ كبير في بلدتنا يُدعى هنتينجتون، اعتاد كلّ يوم أن يشتري مني (ايفننج هيرالد). كان وزنه مائتين وأربعين رطلاً، ويمتلك سيارتين كاديلاك، وستمائة فدانٍ من كروم العنب، وله مايزيد على المليون دولار في بنك الوادي، ورأسه صغيرة، صلعاء كلها، تبدو أعلاها للناظر جهة اليمين، واعتاد أن يُوصي رجال السكة الحديدية القادمين من خارج البلدة أن يعبروا سيراً على ستة فلنكات كي يقابلوني.

واعتاد أن يصيح في الشارع:

ـ هناك كاليفورنيا، من أجل مستقبلكم.

اعتاد أن يقول زاعقاً: ـ ياإلهي، هناك شعر رأس.

وكانت السيدة جاما تتأسى قليلاً لحجم رأسي الكبير.

قالت ذات يوم:

ـ لاأريد أن أذكر أسماء، لكن واحداً من المتواجدين في هذا العمل، إن لم يزر الحلاق في أحد الأيام القادمة، فسيُرسل إلى الإصلاحية.

ولم تذكر أسماء. مكتفية بالنظر إليّ.

قال أخي كريكور: ـ ماهو المثال الرائع؟.

قلت: ـ تذكر شمشون. تذكر غضب شمشون عندما أزالوا شعره.

قال أخي كريكور: ـ الوضع مختلف. فأنت لست شمشون.

قلت: ـ أوه، لا؟... كيف تأكدتَ أني لستُ مثله؟ ماالذي جعلك تعتقد أني لستُ مثله؟

كنت سعيداً لأن الجميع يرثون لحالي، ولكن في يومٍ ما، حاول عصفور الدوري أن يبني له عشاً في شعري، فهرعتُ إلى حلاق بالمدينة.

كنتُ نائماً على العشب تحت شجرة الجوز في فنائنا، عندما طار عصفور الدوري من على الشجرة، متجهاً إلى شعري. كان يوماً شتائياً دافئاً، كل الناس نائمين. والسكون يشمل المكان. لاأحد يندفع وراء سيارة، والشيء الوحيد الذي تتمكّن من الاحساس به، هو الساخن والبارد، والسكون المُقبض والمُبهج لواقع الحياة.

ياإلهي!.. ياله من عالم!.. كم هو رائع أن يكون لك مكان تعيش فيه!.. كم هو رائع أن يكون لك منزل صغير: بتسقيفة كبيرة في واجهته، تقضي فيها أوقات العصارى والأماسي، أيام الصيف الطويلة!.... وبالحجرات مناضد وكراسٍ وأسرة. وصور معلقة على الجدران، مأخوذة من (الساتر داي ايفننج بوست). ياله من مكانٍ غريبٍ ومُدهشٍ في عالمنا هذا. والحياة هي القدرة على التحرك عبر الزمان والمكان، في الصباح، والظهر، والليل: للتنفس والأكل والضحك والتحدث والنوم والنمو. فترى وتسمع وتلمس.

تجوس بِقَاعَ العالم، تحت وهج الشمس، وتكون في قلب المكان، في قلب الدنيا.

كنت فرحاً بتواجد الناس في كلّ مكان، وأنا أيضاً يُمكنني أن أتواجد معهم أينما كانوا. كنت أحيا بمفردي، فحزنتُ على كل شيء، وان كنت فرحاً كذلك. فهناك تشابه بين الأشياء، لهذا كنتُ فرحاً بكل شيء أحزن عليه!.

ولهذا أيضاً كنتُ فرحاً وحزيناً بكل شيء أردتُ تحقيقه: الأماكن التي لم أزرها قط، المدن الخلاّبة في العالم: نيويورك، لندن، باريس، برلين، فيينا، القسطنطينية، روما، القاهرة. حيث تعجّ الشوارع والمنازل والناس بالنشاط والحيوية. حيث الأبواب والنوافذ في كل مكان. حيث القطارات الليلية، والسفن التي تمخر عباب البحر ليلاً. والبحر المظلم الهادر. اللحظات المضيئة لكل السنين المنسية، المدن المدفونة قبل الأوان، الأماكن العفنة والهالكة: ان الحياة نحياها مرة واحدة، إلى أن تأتي النهاية المحتومة، ومن أجل عُمْران الأرض أيضاً.

آه، بحق المسيح، لقد حلمتُ حلماً ذات يوم من عام 1919 : حلمتُ أن الحياة باقية إلى الأبد. حلمتُ بنهاية للاستمرار والفساد والموت. حلمتُ باللحظة السرمدية للشمس في السماء وبدفء الكون.

وسقط عصفور الدوري من على الشجرة إلى رأسي، وحاول أن يبني عشاً في شعري، فاستيقظت.

فتحتُ عينيّ، ولم أتحرك.

لم أكن أدري أن طائراً بشعري حتى بدأ عصفور الدوري تغريده. ولم أسمع قطّ صياح طائرٍ بمثل هذا الوضوح، ماسمعته كان مفزعاً جداً ولم آلفه من قبل، وكان في الوقت ذاته طبيعياً وقديماً جداً. غرَّد الطائر بطلاقة، ولكن ماتناهى إلى سمعي لم يكن إلا نواحاً في نواح، حقاً.. نواح، ولاشيء

عنده غير النواح. مع أن الطائر واضح وبيّنٌ في أداء رسالة الهذيان هذه، وبروح تتسم بالبهجة. لم يكن ثمَّة صوتٌ أسمعه من حولي، وفجأة سمعتُ موسيقى وفصاحة عصفور الدوري. وفي لحظة، حين كنتُ نصف نائم، بدت الصورة كلها طبيعية: الطائر في شعري، يتجّه بصياحه إليَّ، وثمَّة تناقضٌ ملحوظٌ في معنى الرسالة وفي مضمونها: حزناً مرة، وبهجة أخرى.

وتأكد لي أن مثل هذا المعنى غير مناسب.. غير مناسب لطائر صغير أن يُرفرف بجناحيه في شعر أيّ انسان.

فقفزتُ إلى أعلى وأسرعتُ إلى المدينة، طار عصفور الدوري، ربما خوفاً مني، بعيداً بأقصى جهد، وفي دفعة واحدة.

كلّ الناس كانوا على حق، السيدة جاما كانت على حق، أخي كريكور كان على حق. والشيء الواجب عمله هو قص الشعر، حتى لاتحاول عصافير الدوري بناء أعشاش في شعرك.

هناك حلاق أرمني في شارع ماريبوزا يُدعى آرام، وكان في حقيقة أمره مزارعاً، وربما كان حداداً، أو فيلسوفاً، لاأعرف بالضبط. أعرف فقط أن له محلاً صغيراً في شارع ماريبوزا، ويقضي معظم وقته في قراءة (الأسباريز)[1] وصحف أرمنية أخرى، ويلفُ لفائف التبغ، ويدَخِنها، ويراقب الناس المارّين أمامه، لم أره قَطُّ يقصُ شعر أيّ شخص أو يحلق له، على الرغم من أني أفترض أن واحداً أو اثنين قصدا محله عن طريق الخطأ، وبحسن نيّة، ليس إلا.

ذهبتُ إلى محل آرام بشارع ماريبوزا وأيقظته . كان جالساً إلى منضدة صغيرة، وثمَّة كتابٌ مفتوح أمامه، وكان نائماً.

قلتُ بالأرمنية: ـ هل تقصّ لي شعري؟ معي خمسة وعشرون سنتاً.

---

(١) جريدة ناطقة بالأرمنية تصدر في أمريكا حتى اليوم. (المترجم).

قال: ـ آه، أني مسرور برؤيتك. مااسمك؟ اجلس. سأُعِدُّ القهوة أولاً. آه، انه رأسٌ بِشَعْرٍ جميل.

قلت: ـ كل واحد يطلب مني أن أقصَّ شَعْري.

قال: ـ هكذا الناس. دائماً يُمْلون عليك مايجب أن تفعله. ماوجه الغرابة في شعرٍ قصير؟ لماذا هم كذلك؟ انهم يقولون: اكسبوا المال. اشتروا مزرعة. هذا. ذاك. انهم ضد رغبة الانسان في أن يحيا حياة هادئة.

قلت: ـ هل يُمكنك؟ هل يُمكنك أن تقصَّه كلّه، حتى لايتحدّثوا عنه مرة ثانية ولفترة طويلة؟

قال الحلاق: ـ القهوة أولاً. فلنحتسِ قليلاً من القهوة.

هناك بعض الغاز المتبقي، حوض وصنبور، رفٌّ عليه فناجين صغيرة بأطباقها، ملاعق، فتّاحة علب، وأشياء أخرى.

أحضر لي فنجان القهوة، ودُهشتُ لكيفية اعداده. لم أزره من قبل، ربما هو رجل شديد الاهتمام، مختلف عن غيره في المدينة كلها. انه رجل جدير بالاحترام من الطريقة التي استيقظَ بها عندما دخلتُ المحل، ومن طريقة حديثه، ومشيته، وايماءته. انه الرجل الجدير بالاحترام في المجتمع، الحلاق بشارع ماريبوزا. كان يُناهز الخمسين وكنتُ في الحادية عشرة. لم يكن أطول مني ولا أثقل، لكن وجهَهُ وجهُ رجلٍ أكتشفهُ لأول مرة، مُلِمٌ بالمعرفة، محبٌ للحكمة، ولا يزال يحب ولا يقسو.

عندما فتح عينيه، بدت نظرته كأنها تنطق...

المجتمع؟ أعرف كل شيء عن المجتمع. الشر والبخل، البُغْض والخوف، القذارة والهُرَاء.. حتى هذه الصفات، أحبها بصفة عامة.

رفعتُ الفنجان إلى شفتيّ وارتشفتُ السائل الأسود الساخن. كان مذاقه أحلى من أيّ صنفٍ تذوقته من قبل.

قال بالأرمنية: ـ اجلس. اجلس. اجلس. ليس ثمّة مكانٌ تذهب إليه. ليس ثمّة عملٌ تؤديه. ولن ينمو شعرك في ساعة واحدة.

جلستُ وسخرتُ بالأرمنية، بدأ يحكي لي عن أحوال الدنيا.

أخبرني عن عمّه ميساك الذي وُلِدَ في موش[١].

شربنا القهوة ثم جلست إلى الكرسي وبدأ يقصّ شعري. أجرى أسوأ قص لي، أسوأ كثيراً من المرات التي قصدتُ فيها مدرسة الحلاقين في الجهة الأخرى للسكة الحديدية، وبالمَجّان. أخبرني عن عمه الفقير ميساك، في الجهة الأخرى من السكة الحديدية، لم يُلَفِّق أحد من الطلبة الحلاقين قصةً كهذه، فمجموعة الطلبة كلها لو اجتمعت معاً لما استطاعت ذلك. لم أندهش لأن الطلبة الحلاقين كلهم لايستطيعون اختلاق ولو نصف قصة في نفس مستوى هذه القصة الحزينة لعمه الفقير ميساك ونمر السيرك.

خرجت من محله بعد قص شعرٍ سيءٍ جداً، وان كنتُ لم أُعِرْ ذلك أدنى اهتمام. لم يكن حلاقاً بأيّ مقياس. بل هو يدّعي أنه حلاق، لهذا فإن زوجته لا تتضايق منه كثيراً. وهو يؤدي عمله ليُرضي الناس فقط. في كل الأحوال، يميل إلى القراءة والتحدث مع الناس الطيبين. له خمسة أطفال، ثلاثة صبيان، وابنتان، وهم جميعاً يُشبهون زوجته، وهو لايجرؤ على التحدث معهم. وان أحبوا جميعاً أن يعرفوا معلوماتٍ كافيةٍ عن صناعته. قال لي:

ـ وُلِدَ عمي الفقير ميساك منذ زمن بعيد في (موش)، كان ولداً طائشاً للغاية، على الرغم من أنه لم يكن لصاً. كان رعديداً مع الناس الذين يظنون أنهم أقوياء، استطاع أن يُصارع ولدين من المدينة، أيَّ ولدين، وآباءهما وأمهاتهما، إذا اقتضى الأمر ذلك. وفي نفس الوقت.

---

(١) موش: مدينة أرمنية احتلها الأتراك بعد أن ذبحوا سكانها عام ١٩١٥ (المترجم).

وقال: ـ وجدودهم أيضاً.. لهذا فإن كلَّ فردٍ يقول لعمي الفقير مِيساك: أنت قوي، لماذا لاتصبح مصارعاً وتكسب مالاً؟

لهذا أصبح مِيساك مصارعاً. كسر عظام ثمانية عشر رجلاً قوياً قبل أن يبلغ العشرين. وكل ماكان يفعله بنقوده هو أن يأكل بها ويشرب، ويُعطي الباقي للأطفال. لم يكن يريد مالاً.

قال: ـ آه، حدث ذلك منذ فترة طويلة. أما الآن، فكلُّ فردٍ يريد المال. حَذَّروه بأنه سيندم ذات يوم، وكان بطبيعة الحال على صواب. نصحوه أن يحرص على ماله،لأنه في يومٍ ما لن يكون بنفس قوته هذه ولن يقوى على المصارعة، لن يكون معه مال. سخروا منه فرحل بعيداً.ذهب الى القسطنطينية، ثم الى فيينا.

قلت: ـ فيينا؟ هل ذهب عمك الى فيينا؟

قال الحلاق:

ـ نعم، طبعاً.. فقد ذهب عمي الفقير الى عِّدة بلادٍ مختلفة.

قال: ـ في فيينا، لم يجد عمي الفقير عملاً، وأخرصه الجوع والبرد حتى بات على شفا حفرةٍ من الموت، ولكن، هل سرق ولو رغيف خبز؟ لا، لم يسرق شيئاً. ثم ذهب إلى برلين. آه، هناك، أيضاً، أخرصه الجوع والبرد حتى بات على شفا حفرةٍ من الموت.

أخذ يقصّ شعري، يساراً ويميناً. نظرتُ إلى الشعر الأسود المُلقى على الأرض، فشعرت أن رأسي تبرَّدت أكثر فأكثر بعد ماتعَّرت.. وأخذت تصغر أكثر فأكثر. قال:

ـ آه، من برلين. مدينة لاترحم أحداً، الشوارع والمنازل والناس، لم يجد عمي الفقير مِيساك باباً واحداً، أو غرفة واحدة، أو منضدة واحدة، أو صديقاً واحداً.

قلت: ـ آه، ياالهي. ماأقسى وحدة رجلٍ في هذا العالم. تلك الوحدة المأساوية في الحياة.

قال الحلاق: ـ نفس الشيء حدث له في باريس، نفس الشيء حدث له في لندن، نفس الشيء حدث له في نيويورك، نفس الشيء حدث له في أمريكا الجنوبية، نفس الشيء حدث له في كل مكان، في الشوارع، والمنازل، والأبواب، ليس ثمة مكان في العالم أشفق على عمي الفقير مِيساك.

دَعَوْتُ: ـ آه، ياالهي.. احمِهِ، وارحمهِ..

قال الحلاق: ـ وفي الصين، قابل الفقير عربياً يعمل مُهَرِّجاً في سيركٍ فرنسي. تحدَّث المُهَرِّج العربي وعمي مِيساك سوياً بالتركية.

قال المُهَرِّج: ياأخي، هل أنت محبٌّ للانسانِ والحيوان؟ فأجاب عمي مِيساك: ياأخي، أنا أحب كل الموجودات في مملكة الله المقدسة. البشر والحيوانات والسمك والطير والصخر والنار والماء وكل شيء مرئي. وقال المُهَرِّج العربي: ياأخي، هل في استطاعتك أن تحب نمراً، نمر الغابة المتوحش؟ فقال عمي مِيساك: ياأخي، ان حبي لحيوان الغابة المتوحش، حب بلا حدود. آه، وكان عمي مِيساك رجلاً غير سعيد.

قلت: ـ آه، ياالهي.. وأكمل الحلاق كلامه:

ـ كان المُهَرِّج العربي سعيداً جداً لدى سماعه أن عمي يحب حيوانات الغابة المتوحشة، لكونه رجلاً شجاعاً وجريئاً، قال لعمي: ياأخي، هل يصل حبك لنمر أن تضع رأسك داخل فمه المتعرج؟

دعوتُ: ـ احمِهِ، ياالهي..

قال آرام الحلاق: ـ وقال عمي مِيساك: أقدر ياأخي. فقال المُهَرِّج العربي: هل تلتحق بالسيرك؟ بالأمس، أغلق النمرُ فمَه، بغير اهتمام، حول رأس سيمون بيريجارد الفقير، وليس ثمَّة انسان في السيرك يملك مثل هذا الحب الكبير لمخلوقات الله. وكان عمي الفقير مِيساك كارهاً لدنياه، فقال: سألتحق ياأخي بالسيرك، وأضع رأسي داخل فم النمر الذي خلقه الله نقياً، اثنتي عشر مرةً كلَّ يوم. قال له المُهَرِّج العربي: هذا ليس مطلوباً بالضبط.

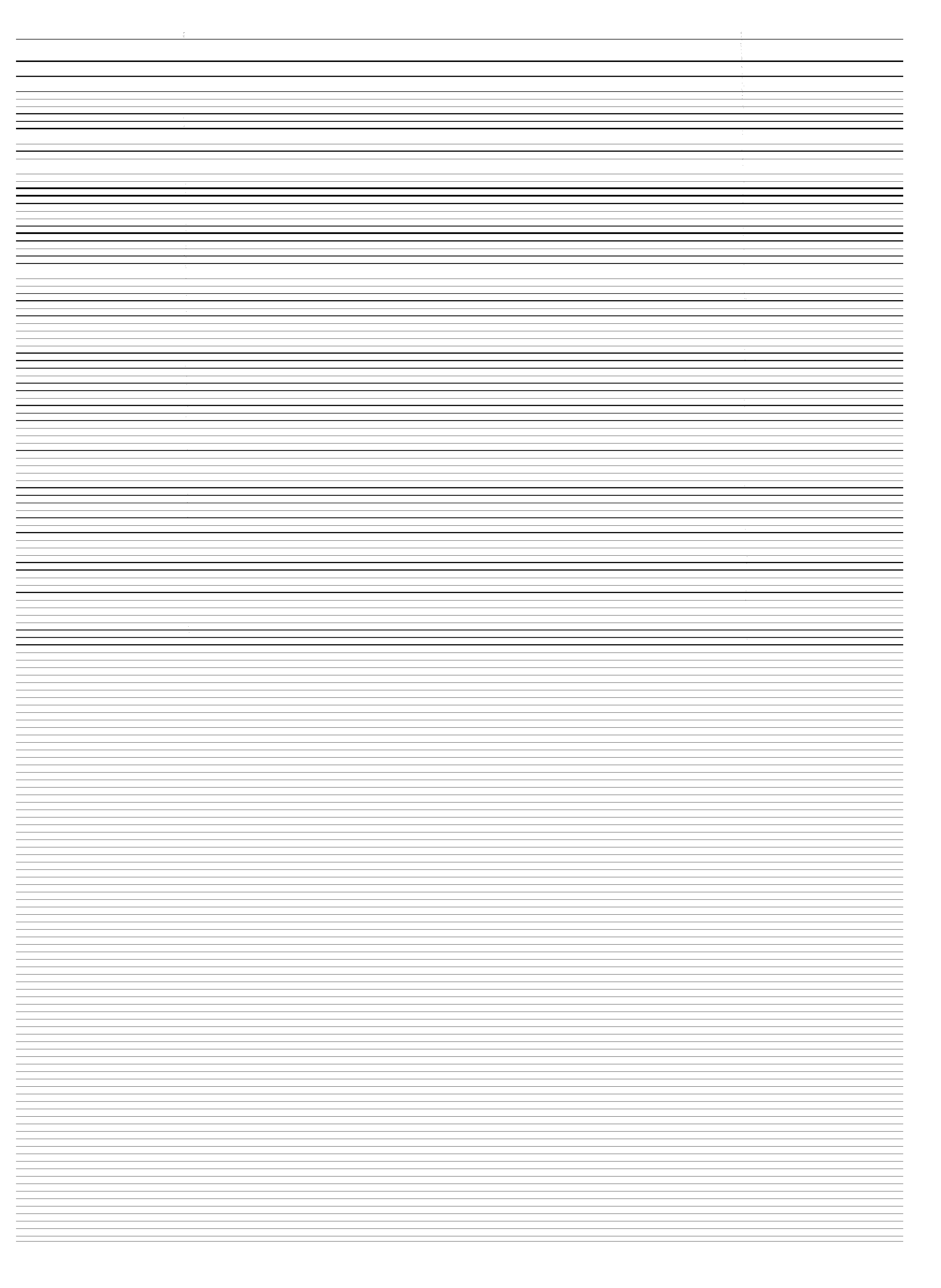
يكفي مرتين كل يوم. والتحق عمي الفقير مِيساك بالسيرك الفني بالصين، وبدأ يضع رأسه داخل الفم المتعرج للنمر.

قال الحلاق:

ـ سافر السيرك من الصين إلى الهند، ومن الهند إلى أفغانستان، ومن أفغانستان إلى إيران، وهناك، في إيران، حدث ما حدث. أصبح النمر وعمي الفقير مِيساك صديقين حميمين. وفي طهران، تلك المدينة القديمة المتأخرة، انقلب النمر ـ من جديد ـ إلى وحش. كان اليوم شديد الحرارة، أصيب كل فردٍ بانحراف المزاج. والنمر أصابه هياج شديد طول النهار. وضع عمي الفقير مِيساك رأسه داخل فم النمر المتعرج، كان ذلك في طهران، تلك المدينة الفارغة المتأخرة من مدن إيران، أوشك أن يُخرج رأسه من فم النمر، في نفس اللحظة التي أطبق النمر ـ المشتعل غضباً من الكائنات الحية على الأرض ـ بفكيه معاً.

سحبتُ الكرسي، ورأيت شيئاً غريباً في المرآة، رأيتُ نفسي، فزعتُ، فكلُّ شعري اختفى. دفعتُ لآرام الحلاق خمسة وعشرين سنتاً، ورجعتُ إلى البيت. سخر الجميع مني. قال أخي كريكور إنّه لم يَرَ أبداً هذا القص العشوائي للشعر. وكان على حقٍ فيما قال.

كل ماسيطر على تفكيري لعدة أسابيع، حكاية عم الحلاق الفقير مِيساك الذي عضَّ نمرُ السيرك رأسه. فكرتُ في اليوم الذي أحتاجُ فيه إلى قص شعري مرة أخرى، وفي ذهابي إلى محل آرام وإنصاتي إلى قصته عن انسانٍ عاش في دنيانا، ضالاً ووحيداً، ودائم العيش على حافة الخطر، تلك القصة الحزينة عن عمه الفقير مِيساك. القصة الحزينة لكل انسانٍ حيٍ يقظ.



سُخريَة الكلب الصغير
من تغيُّر الأحوال

هناك في موسكو، يوجد كلب صغيرٌ وجههُ مُحَيِّر. عاش بالقرب من الكرملين، حيث كان يعيش لينين، والآن ستالين. وقد حزن الكلب الصغير من نهر موسكو، فكان يقف عند حافة النهر، وينبح، لذا، ولكوني بالقرب منه، اندفعتُ أبحث عن قوى الشر الحقيقية والخيالية، الموجودة في الطبيعة.

عندما أُصفّر، يتوقف الكلب الصغير عن النُبَاح لفترة، ويلتفت ناظراً إليَّ (**انه مجرد روح بائسة أخرى، وبالتأكيد هو يشبه كلَّ شخصٍ في العداوة ليس إلاّ**)، ثم يُواصل النُبَاح. من أنا كي أُقحم نفسي كالقضاء المستعجل؟ من أنا لأتسبب في نوعٍ من الازعاج على تلك العُزلة الموحشة للنهر والقمر والليل؟

انتحى الكلب بعيداً عني وأخذ ينبح من جديد.

صحت: ـ فاشا، فاشا.. أنتَ لاتقدر على النباح في وجه القمر.

هذه هي روسيا. تُعَلِّمنا الصدق في كل شيء. الثورة المضادة يجب أن تكون من الأحياء، وأن يوجد نهر، وأرض، وقمر، أيام وليالٍ، مساكن للمعيشة، وكائنات حية، فصول، أيام مضيئة وأيام مظلمة، أيام دافئة وأيام باردة، أيام ممطرة ثلجية، تَخْلُدُ كلُّ الموجودات للرُقَاد، وبمرور الأيام، تنمو

الكائنات الحيّة شيئاً فشيئاً. فلا فائدة اذن من النباح. فكل شيء يحدث لأن صانع اللعبة الثري يُريد المزيد من المال كي تتسع أعماله. هذا كلّ مافي الأمر. وهو نتيجة طبيعية لشراهة الرجل البدين. ولامعنى للقمر والنهر.

صفّرتُ بالطريقة التي اعتدنا أن نُصَفّر بها للكلاب في أمريكا، تصفيرتين متعاقبتين، تتكرران عدة مرات. لكن الكلب الصغير لم يفهم شيئاً، وفي النهاية صَدَمْتُ دون قصدٍ سيارة مارة، لاتضم اثنين، بل ثلاثة أعضاء تنفيذيين للجنة المركزية، وممثلة روسية.

على أيّ حال، فحين يختفي القمر نهاراً، ينتشر الجوع هناك، في الأماكن التي يقصدونها. أما الكلب الصغير، فَيُمَرِّن نفسه على الجري في الشوارع، بادئاً بتتبع شخصٍ روسي ثم آخر، فلا يجعل له صاحباً، وفي الوقت نفسه، يقتفي ـ وهو خائف ـ أثر بعض الغرباء ذوي المظهر الحسن، الذين يتصادف أن يكونوا من الأمريكيين. ويعرف لأول وهلةٍ أن مظهر الغرباء في هذا المكان، له علامة مميزة يُعرفون بها. حيث يعيش هنا صنف خاص من الناس، يُلاحظهم بدقّة وهم يركضون بخفة، وينفخون لفائف الدخان بشراهة، ويصيح كل واحد منادياً على الآخر بلسانٍ أجنبي، يضربون المُسِنّات والعُرْجان، ويبصقون لمسافاتٍ قد تصل إلى ستة أقدام، مُلَوِّحين بأذرعهم في اتجاه المباني، خاصة كاتدرائية سانت باصيل.

هذا هو الحال في مثل هذه الآونة من النهار، ألفيتُ نفسي فجأة قبالة الكلب الصغير، وجهاً لوجه، ولاحظتُ الاستغراب بادياً على وجهه.

بادىء ذي بَدْءٍ، لاحظتُ أن لاكلب الصغير وجهاً مُحَيِّراً، فلأدعه يذهب إلى حال سبيله.

قلت لشحاذ، وأنا اضع في يده ستين كوبيك[1]:

ـ ياأخي، هل شاهدت الكلب؟

---

(١) الكوبيك: عملة روسية تساوي ١/١٠٠ من الروبل

قال الشحاذ: ـ حفظك الله، يأأخي، ميسوراً.

انصرفتُ الى حجرتي، وقد أعياني البحث في مفارقات الحياة والناس والكون. واستغرقتُ في قراءة سِفْر أيوب، أحد الصِدِّيقين الأجلاَّء في العالم. وفي أوج سكرات احتضار أيوب، تذكرتُ فجأةً الكلب الصغير، برغم أنه أعظم من الذكرى، كانت بدايةً للمعرفة الفطرية للكون الذي اكتشفته ذات مرة وأنا نائم، مأهولاً، وبعد ذلك نسيته، كان موغلاً في القِدَم مبحراً في دروب الحكمة. وقد كان كلب موسكو الضال الصغير هو الكلب الضال الصغير لهذا العالم، ثم ضاع ذلك العنصر الحيُّ الصغير في ضخامة وسَرْمَدية الفضاء والزمن، عند تخيّلي للأحداث كلّها في آنٍ واحد، وبعد مزيدٍ من الاكتشافات في الكون المفقود والمُستَرَّد، عرفتُ السبب الذي جعلني شديد الاهتمام بوجه الكلب الصغير.

يبدو أن الكلب يُشبهني تماماً. له نظرة متجهّمة، يواجه بها أيّ كائنٍ حيٍ تكون قد رأيته في الدنيا، ولو كان جَمَلاً، في الوقت نفسه، ترى في عينيه قدرة غير محدودة على الضحك، ناشئة عن فطرةٍ غالبةٍ وحذرٍ غريزي. وإذا أردت أن تُسابق الكلب، لفترة، بسيارة (باكارد) ذات ست عشرة اسطوانة، فإنه يقفز بما يفوق قدرته الطبيعية، هارباً في جزءٍ ضئيل من البوصة، يطأ الأرض حذراً بأرجله الأربعة ولمسافة ثلاثة عشر قدماً، متلفتاً حواليه ونابحاً في وجهك. يحدث ذلك كلّه دون تَدَبُّرٍ، أو قصدٍ، رغم أنه في حالات عديدة، لاسيما وقتما يتواصل عواؤه لفترة طويلة بعد اختفاء الباكارد، يبدو عليه الغضب والاستياء عن قصدٍ ودهاء، ومن ثم، فهنالك أنواع مختلفة من الجيشان والهمهمة المُحْتَدَّة، والزمجرة المُدَوِّية كالرعد، والوَلْوَلَة التي تصدم النفس.

ان الله يلعنكم يا أبناء الكلاب، وياجرذان، ويامخلوقات الزنا في العربات الكبيرة، وياعبدة أوثان القوة والمال، فأنتم كذّابون ولصوص. ولهذا تصادفون كل خطرٍ مُحْدقٍ بتلك المقدرة المدهشة التي تُمَثّل جزءاً مّما هو

متوقع للمخلوقات الحية، التي تُواصل حياتها حتى تبلغ أرذل العمر، ولها أولاد غير شرعيين لايُعَدُّون ولايُحْصَون، يمرحون في أجزاء مختلفةٍ من الأرض، وكلهم يواصلون الحياة بنفس الطريقة، بما في ذلك القفز بطريقة مأمونةٍ في كلّ مرة يُحْدِقُ فيها الخطر.

ليس بِخَافٍ على أحد، أني أعارض الحكومات بكافة أشكالها، وهذا أمر مألوف، لكن لعلّك غير قادرٍ على اخفاء ملاحظتك بأن الذي يستحوذ اهتمامي غالباً هو النظام، وتأييدُ النظام، وإعلانه، و (إذا اقتضى الأمر) لتطوير هذا النظام كما لو أنه نافذٌ فعلاً، وان كان من المؤلم أن يكون مشوشاً وفوضوياً! وغالباً مايُصيبني قلقٌ من نوعٍ خاص، وأميل إلى الشخص الذي يهتم كثيراً بالناس والأشياء.

وعن شخصي، فإني أرغب في الوقت الذي أتعلم فيه كيفية العيش عمراً أطول، ويؤجل موتي!.. دون اقحام شيء، دون تدخلٍ من أحد، وتتوافر فقط العناصر الأولية كنقطة بداية، وهي: الأرض، الكون، الفصول، مقومات الحياة التي تسد الرمق، والماء الذي يحمي من العطش، والهواء اللازم للتنفس، وما إلى ذلك..

اهتممتُ اهتماماً خاصاً بنفسي. إنها الأنانية. فقد أردتُ أن أحيا عمراً أطول، بينما أنا مازلتُ على قيد الحياة، هذا كلٌّ مافي الأمر. قد شئتُ المحاولة فقط. ونحن لسنا بقادرين حتى أن نكتشف إذا كان من الممكن لنا أن نعيش حقاً كلّ فصول السنة، وفي تقلبات الجو المختلفة، وكلّ مراحل النمو، بما في ذلك مايخصّ كلّ واحدٍ من مشاكلَ معقدةٍ وضخمة، ورغم ذلك، فمن حقنا أن نحاول ونجرب. ونحن لايعنينا ما إذا كانت التجربة ستقضي علينا، كما نُجيز التجربة وعدم الاعاقة التي تتسبب فيها البلاهة المزعجة، مثل تلك الحرب التي تنشب حول اليأس عند رِّجالٍ عديمي الاحساس، ويجدون مخارج مختلفة. نحن نريد تحقيق ما نريد بتفردٍ، بدون ازعاج، بدون تفلسف، بدون الانتقال، والطيران، وتكتيك الحرب، والألم

غير العادي، والبطولة غير العادية، والعظمة الفائقة. ونحن نريد تحقيق مانريد في جزءٍ صغيرٍ من العالم الذي نعرف، ونعيش فيه نحن نسعى ليكون كلُّ جزءٍ من تلك المناظر الطبيعية جديراً بنا، ويكون جزءاً منا، فنحن نريد كلَّ شجرة مُحَرَّمة في المكان، كلَّ بقعةٍ من الأرض الخالية. كلَّ نباتٍ بأوراقه الخضراء، كلّ غديرٍ، كلّ لحظةٍ في السماء، كلّ لحظةٍ في السماء، كلَّ ساعةٍ من ضوء النهار في هذا العالم، كلَّ مقدارٍ من ضغط الهواء، كلَّ طعامٍ وماءٍ ونبيذ، بمِلءِ الفم، تعني شيئاً مهماً لنا، ويكون جزءاً من بحثنا عن كُنهِ الحياة الدائمة. فنحن نريد الهيمنة على الوقت الذي يمرّ بنا ولا نُحَبِّذ أيَّ اعاقة.

إنّي أتحدث عن نفسي بالطبع. ربما أردتَ أنتَ شيئاً معيناً، فإذا كان الأمر بالنسبة لك هكذا، حسناً، اذهب واحصل عليه. أعرفُ ماأريد، وأحصلُ عليه. ولا أريد أيَّ مراوغة، فنحن نحيا في الدنيا زمناً طويلاً، انه حقاً زمن طويل منذ عاش السيد المسيح ومات، ولن يرضى عنّي الاله إذا مااستطعت أن ألحظ أيّ تغيير يطرأ، الأمر يبدو لي كما لو أنه يُدَلِّل على الزمن الذي بدأنا منه تجربة الحياة، فالفكرة كلها جاهزة لدينا، وتُعَبِّر عنا كلُّ الآداب، الموسيقى، الرسم، والنحت.

لهذا، وقبل أن تبدأ الحرب.. (فكلّ انسانٍ على قيد الحياة، من سائق سيارة الأجرة، إلى استاذ الاقتصاد في كولومبيا، سيُخبرك أن الحرب وشيكة الوقوع).. أريد أن أُخبر الناس ان ذلك لايعنيني. فقد دفعتني الحرب إلى السأم فعلاً. وليس ثمة شيء يمكن أن يُؤدّى عن طريقي. لستُ في خصومةٍ من جَرَّاء مِزَاجٍ سخيفٍ أُبْتلي به، على الرغم من أن لدي من الخصومات مايكفيني. كما أني لاأريد شيئاً من الحرب. وأرفض الاستسلام لحتميتها. اقتلوا أنفسكم جميعاً كما يحلو لكم. افعلوا ذلك بمهارة، وبأفتك البنادق والغازات المكتشفة. افعلوا ذلك على نِطَاق واسع. لستُ أبالي، ولن تتملكني اللَوْعة على الموتى. دعهم يموتون. ولن اهتم بالدافع الذي جعل كلَّ فردٍ

يُوافق على الحرب، فأياً كان السبب، فليس عندي أيُّ مبررٍ اقتنع به، ولايعنيني ذلك من قريبٍ أو بعيد. سواء أكانوا أحياء، أم موتى.

حسناً، فلأروِ شيئاً قبل فوات الأوان. انهم إذا ماتوا في الحرب، فهم لم يحيوا قطّ. هم لم يعيشوا قطّ. انهم لم يبدأوا حياتهم. فلأقُلْ هذه الكلمات قبل أن تَهْدِر المدافع، ولايكون هناك ركن صغير في الأرض للهروب اليه من المدير. فلأسرد حديثي القصير قبل ان تمتلىء الأوراق بأحداث الحرب.

أثناء إقامتي بغرفتي بفندق موسكو الجديد، تذكرتُ الكونَ المُوْغِلَ في القِدَم، ورأيته من جديد. لم يكن مكاناً آخر. إنّه نفس هذا المكان، نفس كوكبنا الأرضي، الذي بدأت فيه الحياة. من هذا المكان، وفي هذا الزمان، حلمتُ بأني أواصل السير في دُنْيَاي وإلى مَمَاتي. ولكنني حين أفقتُ، كانت الأمور قد اختلط بعضها ببعض. لهذا حلمتُ من جديد، حلمتُ أن هذا المكان الذي اختلط فيه حلمي الخيالي بحلمي الواقعي، سيكون بداية العالم بالنسبة لي. ولكن، عندما استيقظت مرة أخرى، ألفيتُ الناسَ حولي، مهمتين بي، لم تكن البداية، انها النهاية.

قلت وأنا واقفٌ في المدينة: هذه ليست نهايةً للبدايةِ التي صنعتها.

لستُ أقصد هذا بالضبط، وانخرطتُ في الحلم من جديد. وهناك، في دنيا النوم، ينبغي أن تتحقق بذاتي معالمُ الأرض. ولسببٍ غير مفهوم، كان الكلب الضال الصغير منتصباً قبالتي. وقد اعتدنا في الحلم أن يقابل كل منا الآخر، دون أن نتحدث.

كانت الكلاب الضالة الصغيرة تمر على الركن المُخَصَّص لي في البلدة، لأبيع فيه الجرائد. أنتم تذهبون في طريقكم، وأذهبُ أنا في طريقي. وفي الوقت الذي ينتهي فيه ذلك الحلم، أبداً.. الذي ينتهي فيه ذلك الحلم، أبداً في الحلم بالناس الذين يتقدم بهم العمر.

بدأتُ أحلم: بأني سأذهب إلى مكان بعيد عن ذلك العالم، سأذهب لأعيش مع الغرباء وأكون واحداً منهم، سأُنفِّذ هذا، وأنفذ ذاك، وهكذا.

ان العالم وما فيه من اضطراب كافيان جداً كذريعة لي، يالجنهم، هناك لاتملك أيَّ شيء. نعم لاتملك شيئاً. لكنها ليست الحياة. انس كلّ هذا. لاتفكر فيه بالمرة، وأنفذ إلى ما هو جوهري، لأنه ضروريّ للغاية، إذ ليس ثمة نهاية للقدرة الخلاقة. يُمكنك أن تصبح خالداً دون عناءٍ أو متاعب.

وهكذا نسيتُ كلَّ ماكان عن الكلب الضالّ الصغير حتى السنوات المتأخرة من العمر، التي قضيتها في بلاد الغرباء، وبعد ماالستحوذتُ على العديد من الحاجيات التي أردتُ انجازها، ظهر لي الكلب مرة آخرى، نفسُ مايحدث لي دائماً، ظهر قبالتي، مازال حياً يُرزق، بلطفٍ من الله وقدرته.

كان من الطبيعي أن أهتم بالكلب الصغير. لذا أقصد النهر دائماً، وأُصغي لبكاء الكلب الصغير الممزوج بالأسى. ولم يكن في إمكانه فعل شيءٍ غير هذا. شمله الغيظ الشديد والألم، طفق ينبح فلم أتمالك نفسي، أخذتُ أضرب في الهواء وبعنفٍ قوى الشر وأصدم السيارات المارة.

على أيِّ حال، فقد ضحك الكلب الصغير ذات ليلة. كان سعيداً بالفوضى التي تضرب أطنابها في كلّ شيء.. النهر، القمر، الكائنات الحية، المدن، الحكومات، الأفكار، الخطط، التوجس خوفاً، الفصاحة، الكذب، التفاهة، الروعة، والكلب الصغير الذي غرق في الضحك.

حلمتُ ببداية الكون مرة أخرى، ومشيتُ منقبض الصدر في طريق يمتد وسط الخراب، إلى أن ظهر الكلب الضال الصغير، وهو يمشي متوجساً خلفي، ذلك لكوني أمريكياً أرتدي الملابس الأنيقة. التفتُ فألفيتُ الكلبَ الصغيرَ ينتصبُ قبالتي، كان وجهه أكثر اكفهراراً عن ذي قبل. قلت: ـ أجل.. هيا.. أنه عالم كبير، وكلُّ كلبٍ يعيش ليومه. وليس لي وُجْهَةٌ أقصدها كالمعتاد. والواجب عليك أن تسيرَ في ركابي.

لم يقل الكلب الصغير شيئاً. توقف قليلاً ثم تتبع آثار كعبيّ. وبعد فترة، وصلتُ إلى نهر موسكو. وسقط ضوء القمر على موسكو. ذهبتُ

إلى شاطىء النهر وجلستُ على صخرة، أشعلتُ لفافة دخان. بدأ الكلب الصغير يزحف على بطنه متجهاً ناحيتي، بالطريقة التي تفعلها عادةً كلاب الشوارع، فقلت: ـ لاتفعل شيئاً يُوقعك في المَحْظُور،انهض على قدميك، وامشِ مِشْيَةَ كلب.

انصاع طبعاً لِمَا قلت، فلم يكن ذلك إلا حلماً. قفز الكلب الصغير واقفاً على قدميه، وأخذ يهزّ ذيله كيفما اتفق، والتمعت عيناه بالدهشة الأليفة المحبوبة، فقلت: ـ وهو كذلك، تريَّث. فكلُّ ماأريده هو الجلوس هنا بعضاً من الوقت. انتظر.

هدأ الكلب قليلاً، وتمدَّد عند قدميّ.

قلت: ـ مساء الخير.

دائماً أتحدث عن بهجة المساء، عندما لايكون هناك حديث عن شيء بعينه. على أيّ حال، فقد شعرتُ حقاً بالأسى، بسبب تشاؤمي من كل شيء.

قال الكلب: ـ ماذا يعني هذا، ومن يكترث به؟

قلت: ـ حسناً، لايعني شيئاً ذا بال، لكن المقصود به شيء بعينه.

قال الكلب: ـ بالتأكيد. أيُّ شيءٍ يعني شيئاً ما. مامعنى ذلك؟.

قلت: ـ إنَّ الروس على حق. فهم يُولون الأمور عناية فائقة. فالفكرة هي فرصة لكلّ شخصٍ كي يبدأ حياته، حتى حياتك أنت.

قال الكلب: ـ هاها، هذا مسّلٍ.

قلت: ـ ان السبب الوحيد الذي يُصيبنا بالشرور في البلاد الاستعمارية، كما تُصاب هذه البلاد بالشرور هو ما يستغرقه انتقالها من بلدٍ لآخر من وقت.

أصغيتُ للكلب الصغير وهو يقول: ـ هاها..

أصغيتُ له فقط... قلت:

ـ ثمَّة حربٌ أخرى على وَشَك الوقوع، بالتأكيد، وستندفع إليها روسيا على الرغم من مقتل الكثيرين من أولادها، هي لاتندفع لأنها تريدها، وانما السبب يرجع إلى أنه ليس في مقدور انسان أن يفرض الشيوعية على العالم بأسره، حتى لو اندلعت الحروب، واحدةً بعد أخرى، وقُتِلَ فيها نصف سكان العالم، وَضَعُفت الحكومات الرأسمالية، حينذاك سوف تنهض الشعوب وتتولى بنفسها زمام الأمور.

قال الكلب: ـ هاها. وما وجهُ التغيير حينذاك؟ هاها، انهم يستطيعون ذلك. فما الذي يُمكن أن يجنوه من الحرب بعد كلّ الذي حصلوا عليه؟

قلت: ـ الكثير. بالتوزيع العادل للثروة، من أجل هدف واحد.

قال الكلب: ـ هاها. تعني التوزيع العادل للفقر.

قلت: ـ وألاَّ تُوْجَدَ طبقات، فكلُّ الناس متساوون.

قال الكلب: ـ هاها. كلُّ الناس متساوون في المستوى الأقل من المتوسط. هذا ماتقصده، أيها الرفيق.

قلت: ـ ومن ثمَّ، فلن تكون هناك ملكية خاصة.

وقلت: ـ ليس أكثرَ من الجوع المنتشر في العالم.

قال الكلب: ـ هاها. هل هناك درجات للجوع.

قلت: ـ ليس هنالك سوى الخوف.

قال الكلب: ـ هاها. أيها الرفيق، ليس أكثر، ليس أكثر..

قلت: ـ ليس أكثرَ من الصِراع..

قال الكلب: ـ هاها..

واستمرَّ الجِدَال الطويل على نفس المنوال. كنتُ جاداً لأقصى حد، مُحَبِّذاً الانحياز إلى الجانب الذي أتمناه لكل انسان في بداية حياته، ولكن الكلب الصغير ضحك على كلِّ ماقلت، فنهضتُ وانصرفت. وعندما وصلتُ إلى الجسر، نظرتُ خلفي، فألفيتُ الكلب وهو يرفع رأسه إلى القمر، مواصلاً نباحه من جديد.

(لندن - يوليو 1935)

رجل ترك قلبه في المرتفعات

في عام 1914 ، وكنتُ لم أبلغ ست سنواتٍ كاملةٍ من عمري، قَدِمَ رجل عجوز إلى شارع سان بينيتس، يعزف على بوق، وتوقف أمام منزلنا. خرجتُ إلى الفناء ووقفتُ على حافة الطوار، انتظر منه أن يُعيد العزف مرة ثانية، لكنه لم يفعل. قلت: ـ أنا واثق أنك ستعاود العزف للحنٍ آخر.

فقال: ـ ياعزيزي الصغير، ألا أحضرتَ كوبَ ماءٍ لرجلٍ كبيرِ السن، قلبه ليس هنا وانما هناك في المرتفعات؟

ـ أيَّة مرتفعات؟

ـ مرتفعات سكوتش «اسكتلندا». هل تعرفها؟

ـ ماذا يفعل قلبك في مرتفعات سكوتش؟

ـ قلبي مَلَوَّعٌ هناك. ألا أحضرتَ لي كوبَ ماءٍ بارد؟

قلت: ـ أين أمك؟

قال الرجل: ـ أمي في تولزا، بأوكلاهوما، لكن قلبها ليس معها.

ـ أين قلبها؟

ـ في مرتفعات سكوتش. إنّي عطشان جداً، أيها الصغير.

ـ كيف يُمكن لأفراد أسرتك أن يتركوا قلوبهم دائماً في المرتفعات؟

- هذه طريقتنا. اليوم هنا، وغداً لانكون هنا.

- اليوم هنا، وغداً لاتكونون هنا؟ كيف يكون ذلك؟

قال الرجل: - نحيا للحظة، ثم نموت.

قلت: - أين أُمُ أمك؟

.- انها تُقيم في فيرمونت، في بلدةٍ صغيرةٍ تُسَمَّى (وايت ريفر)، لكن قلبها ليس هناك.

- هل قلبها الواهن المتعب الفقير في المرتفعات أيضاً؟

قال الرجل: - للمرتفعات مذاق خاص. يابني، إنّي أموت من العطش.

خرج أبي إلى الشرفة، وصاح بصوتٍ يُشبه الزعيق:

- جوني، اطفىء نارَ العطش عن الرجل الفقير. أعطهِ ابريقَ الماء قبل أن يسقط ويموت. هل القسوة من طباعك؟

قلت: - ألا يُمكن لي معرفةُ حالِ مسافرٍ، من وقتٍ لآخر؟

- أعطِ السيد الكبير بعض الماء. اتقِ الله، ولاتقف هكذا كتمثال. أعطه جرعة ماءٍ قبل أن يسقط ويموت.

- أعطه أنتَ جرعةَ الماء. أنتَ لاتريد أن تفعل شيئاً.

- هل أنا لاأفعل شيئاً؟ لماذ ياجوني، وأنتَ تعلم أن الله لم يرضَ عنّي تماماً، فمازالت قصيدةٌ جديدةٌ تؤرقني.

- كيف لي أن أعرف؟ انك تكتفي بالوقوف في الشرفة، وقد شَمَّرْتَ أكمامَ قميصك. كيف لي أن أعرف؟.

قال أبي: - حسناً، ينبغي أن تعرف.

قال الرجلُ لأبي:

- نهارك سعيد. حدَّثني ابنك عن اعتدالِ الجوِّ النظيف والبارد في تلك المناطق.

(قلت: بحق السيد المسيح، أنا لم أقل شيئاً للرجل عن حالة الجو. من أين أتى بهذا الهُراء؟)

قال أبي: ـ نهارك سعيد. ألا تنشد قسطاً من الراحة؟ يُشَرِّفنا أن تُلَبِّي دعوتنا للغداء.

ـ ياسيدي، أنا جائع جداً. سأدخل ملبياً الدعوة.

قلت للرجل: ـ هل يُمكنك عزف **«اشرب نخبي، وفي صحة عينيك أنت»**. أنا متأكد أنك تحب عزف هذه الأغنية على البوق. انها اغنيتي المفضلة. وأنا أحب هذه الأغنية أحسن من أيّ أغنيةٍ أخرى في العالم.

ـ ياابني، عندما تكون في مثل سني، ستعرف أن هناك الأغنيات ليست مهمة، الخبز هو الأهم.

ـ على أي حال، أعتقد أنك تحب عزف تلك الأغنية.

أطلَّ الرجل من الشرفة، ووضع يده في يد أبي. قال:

ـ اسمي جاسبر ماك غريغور، أنا ممثل.

قال أبي: ـ اني في غاية السعادة لمعرفتك. جوني، ناول السيد ماك غريغور ابريق الماء.

ذهبتُ إلى البئر وصببتُ بعض الماء البارد في ابريق وعدتُ به إلى الرجل. شربَ الماءَ دفعةً واحدة. ثم نظر حوله، حيث تمتد الأراضي الزراعية الواسعة، ونظر عالياً إلى السماء، وبعيداً إلى «سان بنيتس أفينيوّ»، وقد أوشكت الشمس على المغيب.

قال: ـ أعتقد أني على بعد خمسة آلاف ميلٍ عن الوطن. هل ترى أن نأكل قليلاً من الخبز والجبن حتى أُبقي على سلامة بدني وروحي معاً؟

قال أبي: ـ اذهب ياجوني إلى البقّال، وأحضر رغيفاً من الخبز الفرنسي ورطل جبن.

قلت: ـ اعطني نقوداً.

- قل للسيد كوزاك أن يُعطينا بالأَجَلْ. فأنا لااحتكم ياجوني على بِنْسٍ واحد.

- انه لن يُقرضنا. لقد ضجر السيد كوزاك من إقراضنا. هو يشتكي منّا. يقول أننا لانعمل ولانُسَدِّد كشوف الحساب. نحن مدينون له بأربعين سنتاً.

- اذهب إلى هناك وواصل مفاوضاتك معه. تعرف أن هذا واجب عليك.

- يقول السيد كوزاك أنه لايُعطي أذناً صاغية لأيِّ شيء. كلُّ مايريده هو الأربعين سنتاً.

قال أبي: - اذهب وواصل معه كي يُعطيك رغيفَ خبزٍ ورطل جبن. أنت أهلٌ لذلك ياجوني.

قال الرجل: - اذهب إلى هناك وقُلْ للسيد كوزاك أن يُعطيك رغيف خبز ورطلَ جبن، ياابني.

قال أبي: - أسرع ياجوني. لن يُرضيك أن تعود من ذاك المحل وأنت خالي الوفاض، فحتماً ستعود إلى هنا خلال عشر دقائق مُحَمَّلاً بطعامٍ يليق بملك.

قلت: - لاأقدر. يقول السيد كوزاك إننا نحاول استجداءه بألوانٍ من العَبَث. أنه يريد أن يعرف نوع العمل الذي تؤديه.

- حسناً، أسرع وقل له أنه ليس عندي ماأُخفيه. فأنا أكتب الشعر. قل للسيد كوزاك أني أقرض الشعر ليل نهار.

- حسناً. هو كذلك. وان كنتُ لاأنتظر منه مرونةً أكثر. فهو يقول انك لم تخرج أبداً شأن العاطلين الآخرين وتبحث لك عن عمل، ويقول أنك كسول ولافائدة منك.

قال أبي: ـ تذهب أنت أليه، وتُخبره أنه هو الكسلان. تذهب ياجوني وتُعرِّفه بأن أباك أحد الشعراء العظام الأحياء غير المعروفين.

ـ هو لايهتم بذلك، لكني سأذهب. وسأبذل مافي وسعي. فنحن لانملك شيئاً في المنزل؟

ـ ذُرَة فقط ياجوني. نحن نأكل الذُرة أربعة أيام ونحن راضون. يُمكنك أن تحصل على الخبز والجبن اذا صبرت عليَّ حتى أُنهي تلك القصيدة الطويلة.

ـ سأبذل مافي وسعي.

قال السيد ماك غريغور: ـ لاتُضيِّع وقتاً طويلاً، فأنا أبْعُدُ عن البيت خمسةَ آلافِ ميل.

ـ سأسرع في طريقي.

قال أبي: ـ إذا عثرتَ على أيِّ نقود في طريقك، فتنبَّه إلى أننا سنتقاسمها معاً.

ـ وهو كذلك.

قصدتُ محل السيد كوزاك جرياً، لكني لم أُصادف أيَّ نقودٍ في طريقي، دخلت المحل ففتح السيد كوزاك عينيه.

ـ ياسيد كوزاك، إذا كنتَ في الصين وليس لك صديق وليس معك مال، فأنك تأمل في أن تُصادف مسيحياً يُعطيك رطل أرز، أليس كذلك؟

قال السيد كوزاك: ـ ماذا تريد؟

ـ لاأريد سوى التحدث معك قليلاً. أنت تأمل في شخص من العِرْق الآري يتقدم لمساعدتك ولو بمساعدة بسيطة، أليس كذلك ياسيد كوزاك؟

ـ كم معك من النقود؟

ـ ليس ثمّة سؤال عن المال، ياسيد كوزاك . إني أتحدث عن الإقامة في الصين، والاحتياج لمساعدة شخصٍ من العِرْق الأبيض.

ـ أنا لاأُلقي بالاً لأيِّ شيء!

ـ ماهو احساسك عندما تكون في الصين؟

قال السيد كوزاك: ـ لاأعرف. ماالذي يمكن أن أفعله في الصين؟

قلت: ـ حسناً، يُمكنك أن تذهب إلى هناك كزيارة، وتكون جائعاً، وليس لك صديق هناك. هل تأمل في أن تُصادف مسيحياً طيباً فيصدُّك ولايُعطيك ولو رطلَ أرز، فماذا أنت فاعل، ياسيد كوزاك؟

ـ لاأظن، لكنك لستَ في الصين ياجوني، ولا والدك. يمكنك أنت ووالدك أن تذهبا إلى الخارج، وتعملا بعضاً من الوقت الذي تضيعانه، ومن المستحسن أن تبدآ من الآن. فليس في نيتي بيع سلعٍ أخرى بالأَجَل، لأني متأكد أنكما لن تدفعا لي شيئاً.

ـ ياسيد كوزاك، أنتَ لاتفهمني: لستُ أُحدِّثك عن مواد البقالة البسيطة. إنما أتحدث عن كلِّ المُلحدين الذين تُصادفهم في الصين، وتكون أنت جائعاً فتموت.

قال السيد كوزاك: ـ لسنا هنا في الصين. يمكنك أن ترحل، وتُرَتِّب حياتك في تلك الدولة. ان كلَّ شخصٍ في أمريكا له عمل.

قلت: ـ ياسيد كوزاك، أنتَ لاتحتاج إلا لرغيف خبزٍ فرنسي ورطل من جبنن كي تُحافظ على حياتك. هل تتردد في طلب هذه الأطعمة من مسيحيّ مُبَشِّر؟

ـ نعم، ينبغي.. ينبغي أن أخجل من الطلب.

ـ حتى لو ضَمِنْتَ أن تُردَّ إليه رغيَفَي خبزٍ ورَطْلَي جبن؟ حتى لوحدث ذلك؟

قال السيد كوزاك: ـ حتى لو حدث ذلك.

ـ لاتكن كذلك، ياسيد كوزاك. فحديثك هذا مُخَيِّبٌ للآمال، وأنت تعلم هذا. ان الشيء الوحيد الذي يُحتمل أن يحدث لك، هو أن تُواجه الموت. وتنتهي سيرتك، ياسيد كوزاك، هناك في الصين.

قال السيد كوزاك: ـ لاأهتم بما يُمكن أن يحدث لي. ينبغي أن تدفع أنت ووالدك ثمنَ الخبز والجبن. لماذا لايخرج أبوك ويبحث عن عمل؟

ـ بصرف النظر عن أيِّ شيء، كيف حالك ياسيد كوزاك؟

ـ بخير. وكيف حالك ياجوني؟

ـ لستُ على مايرام. كيف حال أولادك، ياسيد كوزاك؟

ـ بخير. الآن، بدأ ستيبان يمشي.

ـ عظيم. وكيف حال أنجيلا؟

قال السيد كوزاك: ـ شرَعَت أنجيلا في الغناء. كيف حال جدتك؟

ـ بدأت تتحسن. هي الأخرى شرعت في الغناء. تقول إنها ينبغي أن تصبح نجمة أوبرا، فهذا أفضل لها من أن تكون ملكة جمال. كيف حال زوجتك مارتا ياسيد كوزاك؟

ـ أوه، انها بدينة.

ـ أنا لاأعرف كيف أُعبِّر عن سعادتي عندما أطمئن إلى أن جميع أفراد أسرتك بخير. أعرف أن ستيبان يُعِدُّ نفسه كي يصبح رجلاً عظيماً.

قال السيد كوزاك: ـ آمل ذلك. أنوي إرساله إلى مدرسة عالية، وأرى أنه سَتُتاح له كلّ الفرص التي لم تكن مُتَاحة لي. لستُ أحب له أن يفتح محلَّ بقالة.

قلت: ـ كلّي ثقة بستيبان.

ـ ماذا تريد، ياجوني؟ وكم معك من المال؟

ـ ياسيد كوزاك، أنت تعرف أني لم آت إلى هنا لأشتري. كما أنك تعرف أني أسْعَد بالحديث التأملي الهادىء معك، في كلّ الأوقات. لهذا، فلآخذ رغيف خبز ورطل جبن.

ـ وتدفع نقداً، ياجوني.

ـ وإسْتِر، كيف حال ابنتك الجميلة إسْتِر؟

ـ إستر بخير، ياجوني. لكن عليك أن تدفع نقداً. أنت وأبوك أسوأ اثنين في المدينة كلّها.

ـ اني سعيد بأن إسْتِر بخير. ان جوسبر ماك غريغور يزور منزلنا. أنه ممثل كبير.

قال السيد كوزاك: ـ لم أسمع به أبداً.

قلت: ـ وأريد زجاجة بيرة للسيد ماك غريغور.

ـ لاأستطيع اعطاءك زجاجة بيرة.

ـ بالتأكيد أنتَ تستطيع.

قال السيد كوزاك: ـ لاأستطيع. سأسمح لك برغيفٍ واحد من الخبز الردىء، وبرطل جبن، هذا كل ماأستطيع. ما نوع عمل أبيك، عندما ينوي أن يعمل ياجوني؟

ـ أبي يقرض الشعر، ياسيد كوزاك. هذا عمل أبي الوحيد، ليس إلا. إنه واحد من أعظم شعراء العالم.

قال السيد كوزاك: ـ متى يحصل على مال؟

قلت: ـ هو لم يحصل على مالٍ أبداً، وأنت ليس في مقدورك أن تحتفظ بفطيرتك بعد أن تأكلها.

ـ لستُ أحبِّذ عملاً كهذا. لماذا لايعمل أبوك غير ذلك العمل، كأيّ شخص، ياجوني؟

ـ انه يعمل أصعبَ مِمَّا يعمل غيره. فأبي يبذل جهداً ضعف مايبذله الرجل العاديّ.

قال السيد كوزاك: ـ حسناً، فأنت مَدِيْنٌ لي بخمسة وخمسين سنتاً، ياجوني. بشرط ألاَّ تُعيد الكَّرة، اطلاقاً.

قلت: ـ أَخْبِر إِسْتِر أني أحبها.

قال السيد كوزاك: ـ وهو كذلك.

ـ إلى اللقاء، ياسيد كوزاك.

ـ مع السلامة، ياجوني.

جريتُ عائداً إلى المنزل برغيف الخبز الفرنسي ورطل الجبن.

كان أبي والسيد ماك غريغور ينتظران في الشارع، ليريا ماإذا كنت سأرجع ومعي الطعام. جَرَيا نصف المسافة نحوي وحين رأيا الطعام معي، رجعا إلى المنزل حيث تنتظر جدتي. هرولتْ جدَّتي إلى داخل المنزل لِتُعِدَّ المائدة.

قال أبي: ـ أعرف أنك ستقوم بالمهمة.

قال السيد ماك غريغور: ـ وأنا أيضاً.

قلت: ـ انه يُطالبنا بأن ندفع له خمسة وخمسين سنتاً. ويُنذرنا بأنه لن يُعطينا بالأَجَل أكثر من ذلك.

قال أبي: ـ هذا رأيه. عن أيّ شيء تحدثتَ معه ياجوني؟

ـ أولاً، تحدثتُ إليه عن الإصابة بالجوع وعن التعرض للموت في الصين، ثم سألته عن أحوال الأسرة.

ـ كيف حال كلّ فردٍ فيها؟

ـ بخير.

دخلنا جميعاً وأكلنا رغيفَ الخبز ورطلَ الجبن، شرب كلّ منا كوبين أو ثلاثة من الماء، وبعد أن أتينا على كل فتات الخبز، تلفت السيد ماك غريغور فاحصاً المطبخ ليرى ماإذا كان هناك طعامٌ يؤكل.

قال: ـ هذا الوعاء الأخضر هناك إلى أعلى، ماالذي بداخله، ياجوني؟

قلت: ـ رخام.

ـ بل صوانٍ، أطباقٌ، وفناجين. هل ثمّة شيءٌ فيه يؤكل، ياجوني؟

ـ جداجد[١] ..

ـ وذلك الاناء الكبير، هناك، في الركن. ماالذي يُوضع بداخله؟

قلت: ـ في ذلك الاناء، وضعتُ ثعباناً سنجابياً.

قال السيد ماك غريغور: ـ حسناً. يمكنني ياجوني طلب قطعة صغيرة من الثعبان السنجابي المسلوق في إناء كبير.

ـ لن تستطيع ذلك مع مثل هذا الثعبان.

ـ ولِمَ لاياجوني؟ لم لا نُجَربه يابني؟ اسمع أن مواطني (بورنيو) يأكلون الثعابين والجنادب. أنت لاتحتكم على نصف دستة من الجنادب السِمَان. هل لديك جنادب ياجوني؟

ـ أربعة فقط.

ـ حسناً. أرني إيّاها ياجوني. وبعدما نملأ بطوننا، سأعزف: **داشرب نخبي، وفي صحــة عينيك أنت**. إني جائع جداً ياجوني.

ـ وأنا أيضاً. لكن أنت ليس في نِيّتك قتلُ هذا الثعبان.

جلس أبي إلى المنضدة واضعاً رأسه بين راحتيه. وهو يحلم. وتجوّلت جدتي في أرجاء المنزل ، مغنية ألحان بوتسيني. وحينما كنتُ أتجول في الشوارع، أخذت ترطن بالإيطالية.

---

(١) جمع جُدجُد، صراصار الليل، و (الجدجد) نوع من الخنافس.

قال أبي: ـ مارأيك ببعض الموسيقى، أظنها ستسرُّ الولد.

قلت: ـ بالتأكيد، ياسيد ماك غريغور.

قال السيد ماك غريغور: ـ وهو كذلك ياجوني.

ومن ثمّ، نهض وأخذ ينفخ في البوق، نفخ أكثر من أيّ نافخ بوقٍ قابلته. استمع إليه الناس على مقربة أميالٍ عديدة، كانوا مبتهجين. وتجمَّعَ ثمانية عشر من الجيران أمام منزلنا، أثنوا على السيد ماكجريجور عندما أنهى العزف المنفرد. واصطحب أبي السيد ماك غريغور إلى الخارج عند مدخل المنزل، قال:

ـ أيها الجيران والأصدقاء الطيبون، أريد منكم أن تلتقوا بجاسبر ماك غريغور، أعظم ممثل شكسبيري في الوقت الراهن.

لم يُعَلِّق الجيران والأصدقاء الطيبون. قال السيد ماك غريغور:

ـ أذكر تواجدي لأول مرة في لندن عام ١٨٦٧ كما لو أنه كان بالأمس.

وواصل سرد قصة اتقانه لصنعته.

فقال له النجار روف ابلي: ـ ماذا عن الموسيقى ياسيد ماك غريغور؟

فقال السيد ماك غريغور: ـ ألديك بيضة في منزلكم؟

ـ بالتأكيد. عندي دستة بيضٍ في منزلي.

ـ أيكون مناسباً أن تذهب وتأتي بواحدة من دستة البيض؟ عندما تعود، سأعزف أغنية تجعل قلبك يَثِب ويفرح ويحزن.

قال روف: ـ حالاً سأذهب.

وهرع إلى البيت ليأتي ببيضة.

سأل السيد ماك غريغور، توم باكير، إذا ما كان لديه في منزله قطعة سجق. فردَّ عليه توم بالإيجاب، فسأله السيد ماك غريغور، إنْ كان لايُمانع

في أن يذهب ويُحضر قطعة السجق الصغيرة هذه، وقال انه سيعزف له حين عودته أغنية على البوق تُغيِّر من تاريخ حياته كلها.

توجَّه توم إلى البيت ليُحضر السجق. وسأل السيد ماك غريغور كلّ واحدٍ من الجيران والأصدقاء الطيبين الثمانية عشر، إذا كان في بيته شيء بسيط وشهي يؤكل ولبّى كلّ رجل الطلب. ذهب كلّ رجل إلى بيته ليجيء بالشيء الصغير الشهيّ الذي يُؤكل. ومن ثمّ بدأ السيد ماك غريغور عزف الأغنية التي قال عنها أنه من الممتع سماعها، وعندما رجع كلُّ الجيران والأصدقاء الطيبون إلى منزلنا، ومعهم كلُّ الأشياء البسيطة الشهية التي تؤكل، رفع السيد ماك غريغور البوق إلى شفتيه وعزف: **قلبي هنـاك في الهضاب العاليـة، قلبي ليس هنـا..** ذرف كل الجيران والأصدقاء الدمع. والتفت إلى بيته.

تناول السيد ماك غريغور كلّ الأصناف المفيدة إلى المطبخ، أعدّت أسرتنا الوليمة، شرب الجميع، وعمَّت البهجة: بيضة، سجق، دستة بصل أخضر، نوعان من الجبن، بطاطس مقلية، طماطم طازجة، بطيخة، شاي، وأشياء أخرى نافعة وكثيرة وتصلح للأكل. أكلنا حتى امتلأت بطوننا، قال السيد ماك غريغور:

ـ ياسيد، إذا كنتَ لاتُمانع في تفضيلي البقاء في منزلك لأيامٍ قليلةٍ قادمة.

قال أبي: ـ ياسيدي، منزلي هو منزلك.

مكث السيد ماك غريغور بمنزلنا سبعة عشر يوماً وسبع عشرة ليلة، وبعد ظهر اليوم الثامن عشر، قَدِم إلى منزلنا. رجلٌ كبير من دار المسنين، وقال:

ـ أبحث عن جاسبر ماك غريغور الممثل.

فقال أبي: ـ ماذا تريد؟

ـ أنا قادم من دار المسنين. وأريد أن يَحْضُرَ إلينا السيد ماك غريغور، حيث سنبدأ عرضنا السنوي خلال أسبوعين، نحن في حاجة إلى ممثل.

نهض السيد ماك غريغور عن الأرض حيث كان يحلم، وذهب مع الشاب بعيداً، وبعد ظهر اليوم التالي، عندما كان أبي جائعاً، قال:

ـ اذهب ياجوني إلى محل السيد كوزاك، وائتِ بالقليل الذي يُؤكل. أعرف ياجوني أنك قادر على ذلك. احضر أيَّ شيء يُمكنك أن تأتي به.

قلت: ـ يريد السسيد كوزاك خمسةً وخمسين سنتاً. وهو لن يُعطينا شيئاً أكثر من ذلك بدون نقود.

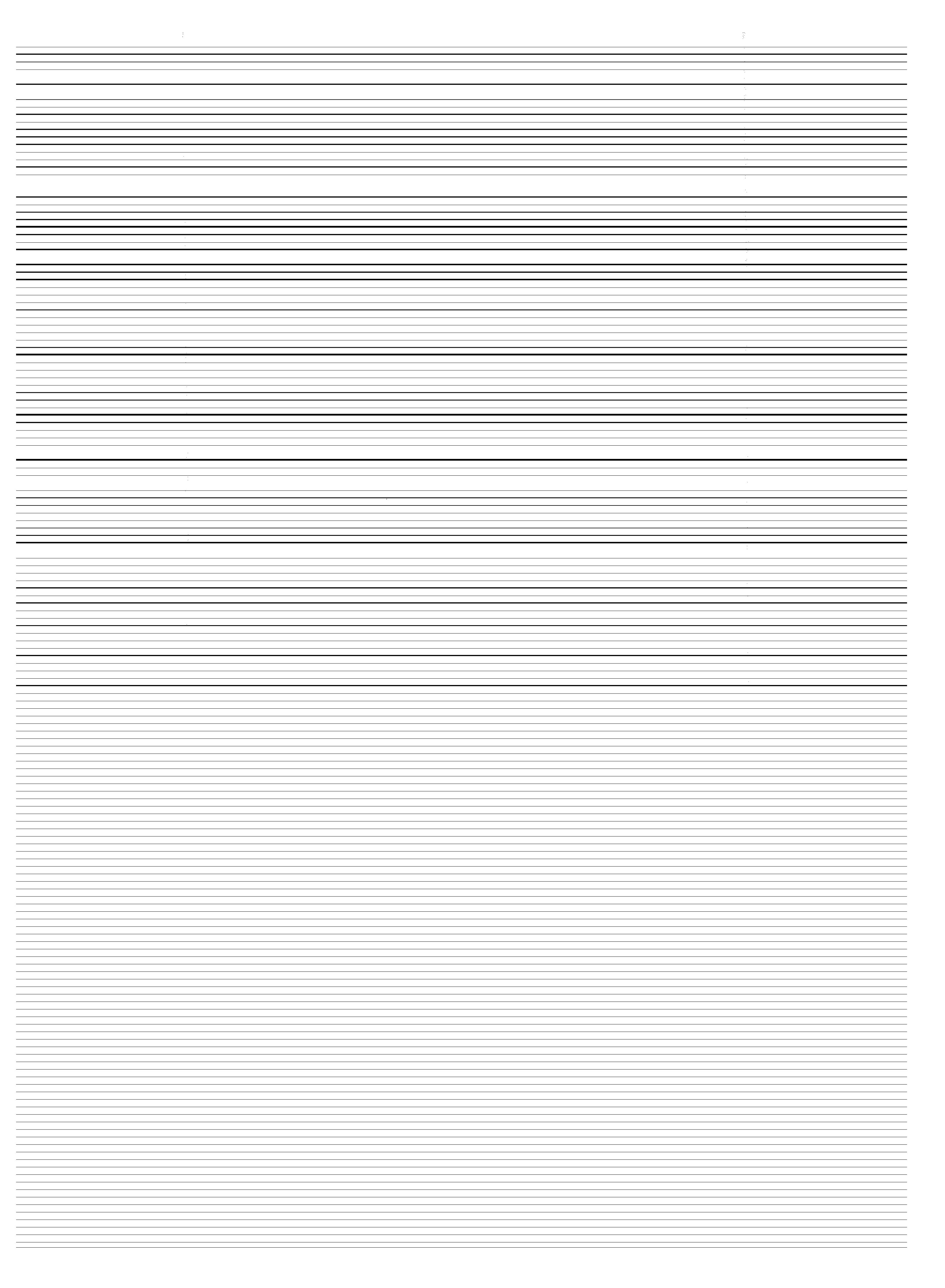
ـ اذهب ياجوني إلى هناك. أنت تعرف أنك تستطيع الذهاب إلى هذا السلوفاكي النبيل الرقيق، ليُعطيك بعضاً مما يُؤكل.

ذهبتُ على التو إلى محل السيد كوزاك واسترجعتُ في ذهني المشكلة الصينية التي كنتُ قد أهملتها، كان عملاً مريحاً لي أن أظفر من المحل بصندوقٍ به حبوب الطيور ونصف صفيحةٍ من مشروب الاسفندان.

فقال أبي: ـ ياجوني، ان هذا الصنف من الطعام يُمكن أن يُصاحبه خطر على السيدة العجوز، جدتك.

في الصباح تأكد ذلك، حيث سمعنا جدتي تُغرِّد مثل الكناري.

قال أبي: ـ ياله من عذاب. هل يُمكنني بحقِّ الجحيم أن أقرض شعراً رائعاً على حبوب الطيور هذه؟



كان لوك يُمسك برأسي، وأمسك أنا برأس مرجريت. كلّ منا يدّخر نكلة[1]، قال لوك لي: ـ لاتنس يامارك أن تضع النكلة، لاتحتفظ بها كما فعلتَ في المرة الأخيرة وتشتري بها آيس كريم.

ـ وأنت أيضاً.

في المرة الأخيرة، لم يضع لوك النكلة الخاصة به ورأيته بنفسي. كنتُ قد اشتريتُ آيس كريم بعد ظهر يوم حارٍ جداً . وقد أعطاني شولتز ملعقتين. ورآني لوك وأنا آكل قمع الآيس كريم تحت أشجار الزنزلخت بمدرسة إيمرسون.

ضبطني كالجاسوس هاوكشو، قال:

ـ آه.. ها.. من أين جئتَ بالنقود يامارك؟

قلت: ـ أنتَ تعرف من أين.

ـ لا. من أين؟ قلْ لي..

ـ من مدرسة الأحد. أنا لم أضعها.

قال لوك: ـ هذه خيانة.

(١) النكلة: تساوي خمسة سنتات.

- أعرف ذلك، وأنت لم تضع شيئاً.
- بل وضعتها.
- لا، أنتَ لم تضع شيئاً. لقد لمحتك وأنت تمرّ على السلّة دون أن تضع النكلة.
قال لوك: - أني أوفر.
قلت: - لِمَ تُوَفِّر؟
- لشراء منطاد.
- كم ثمن المنطاد؟
- هناك منطاد خاص بالأولاد، يتكلّف دولاراً واحداً، ويأتي من شيكاغو.
قلت: - منطاد حقيقي؟
قال: - يُمكن لاثنين أن يصعدا بداخله. أنا وإرنست وسِت.
ابتلعتُ آخر قطعة من الآيس كريم. قلت: - وماذا بشأني؟
قال لوك: - أنت لاتستطيع أن تصعد. أنتَ صغير جداً. أنت طفل.
أما إرنست وسِتْ ففي مثل سني.
- لستُ بطفل. عمري ثماني سنوات وعمرك عشرة. دعني يالوك أصعد معك بالمنطاد.
قال لوك: - لا..
لم أصرخ، لكني حزنت. أشعرني لوك بالأسى.
قال: - أنتَ تحب «أليس سمول». أنتَ مازلتَ طفلاً.
هذا صحيح. أنا أحب أليس سمول، لكن طريقة لوك أشعرتني بالأسى.
حزنتُ بمفردي. حقاً، أحببتُ أليس سمول. هل فعلتُ ذات مرة ماأريد؟ هل مشيتُ يوماً معها؟ هل أمسكتُ ذات مرةٍ يدها وأخبرتها كم

أحبها كثيراً؟ هل بُحْتُ لها باسمها بطريقةٍ أُفَضِّلُهَا، لهذا فقد عرفتْ كم تعني هي بالنسبة لي؟ لا، كنت في غاية الفزع. لم أكن جريئاً بدرجةٍ كافية كي أرنو أليها. هي أفزعتني لأنها كانت في منتهى الرقة، كما شعرتُ بأسى عندما تحدَّث لوك.

قلت: ـ أنتَ حيوان يالوك.

وقلت: ـ أنتَ غشّاشٌ قذر.

ولم أقوَ على التفكير في أيّ كلمةٍ من الكلمات الأخرى التي أسمع الأولاد الكبار وهم يرددونها، لذا انخرطتُ في البكاء، أحسستُ أني مخطيء جداً لأني ناديتُ أخي بهذه الأسماء، فاعتذرتُ له في المساء.

قال لوك: ـ لاتُحاول خِداعي. فالعصى والأحجار يُمكن أن تُكسِّر عظامي، أما الأسماء فلا تضربني أبداً.

قلت: ـ لم أرْمِ عليك يالوك أيَّ عصيٍ أو أحجارٍ، اطلاقاً.

ـ أنتَ تُطلق عليَّ تلك الأسماء.

ـ لم أقصد شيئاً يالوك. حقاً. لم أقصد. فأنت ادَّعيت أني أحبُّ أليس سمول.

ـ حسناً، هكذا أنت. وكلُّ الناس يعرفون عنك هذا.

ـ لستُ كذلك. فأنا لاأحبُّ أيَّ شخص.

قال لوك: ـ أنت تحب أليس سمول.

قلت: ـ أنت حيوان.

سمعني أبي. كان يجلس في غرفة الجلوس ويقرأ كتاباً. نهض من مكانه ودخل غرفتنا، غرفتي أنا ولوك. وأخذتُ أبكي. قال:

ـ ماذا حدث؟ ماذا بَدَرَ منك واستفزَّ أخاك؟

قال لوك: ـ عصيٌّ وأحجار..

قال الأب: ـ لاتُلقِ بالاً لهذا. لماذا تعمد دائماً لإغاظة مارك؟
قال لوك: ـ أنا لم أغظه.
صحتُ: ـ بل أغاظني. قال أني أحبُ أليس سمول.
قال أبي: ـ أليس سمول؟!
ولم يكن قد سَمِعَ من قبل عن «أليس سمول». ولايعرف أنها مرحة.
قال: ـ من تكون أليس سمول؟
قلت: ـ انها تلميذة في فصلي بالمدرسة، ووالدها واعظٌ بكنيستنا. وهي تُعِدُ نفسها لتلتحق بارسالية تبشير عندما تكبر. وقد أخبرتنا بكلِّ هذا أمام تلاميذ الفصل.
قال أبي: ـ اعتذر لِلُوك لأنك ناديته باسمٍ غير لائق.
ثم قال أبي: ـ لوك.. اعتذر لمارك لأنك أغظته بموضوع أليس سمول.
قال لوك: ـ أنا آسف عندما أغظتك بموضوع أليس سمول.
كنت أعلم أنه غير آسف. فندمتُ على أني اعتذرتُ له. كنتُ أدرك أنه لم يندم عندما اعتذر لي. وقد قالها لأن أبي طلب منه ذلك.
عاد أبي إلى كرسيه في غرفة الجلوس. وقبل أن يجلس قال:
ـ أريد منكم ياأولاد أن تُشغلوا أنفسكم بذكاء وفطنة، وألاَّ يُثير كلٌّ منكما أعصاب الآخر. هل تفهمان؟
قال لوك: ـ نعم، ياسيدي.
تناول كلٌّ منا نسخة من (الساتر داي ايفننج بوست) وأخذنا نتفرَّج على الصور. ولم يتحدث لوك معي.
قلت: ـ هل يمكنني الصعود بالمنطاد؟
فاكتفى بتقليب صفحات المجلة ولم ينبس ببنت شفة.
قلت: ـ مرة واحدة فقط؟

استيقظت في منتصف الليل وأخذتُ أفكر في الصعود بالمنطاد.

قلت: ـ لوك..

استيقظَ أخيراً، قال: ـ ماذا تريد؟

ـ دعني يالوك أصعد بالمنطاد معك، عندما يصل من شيكاغو.

ـ لا

كان ذلك في الأسبوع الماضي. والآن نحن في طريقنا إلى مدرسة الأحد.

قال لوك: ـ لاتنسَ يامارك أن تضع النكلة.

قلت: ـ وأنتَ أيضاً.

ـ أنتَ تُنفِّذ ما تعقد العَزْم عليه.

قلت: ـ وأنا أريد منطاداً.

قال لوك: ـ من الذي تطرَّق إلى الكلام عن المنطاد؟

ـ إذا لم تضع نكلتك، فلن أفعل مثلك.

ويبدو أن مرجريت لم تسمعنا. بينما هي تمشي في طريقها أثناء مناقشتي مع لوك حول المنطاد.

قلت: ـ سأعطيك النصف يالوك، إذا سمحتَ لي بالصعود.

قال لوك: ـ ويأخذ إرنست وسِت النصف الآخر، فنحن شريكان.

وقال لوك: ـ بعد ثمانية أسابيع على الأكثر، سيصل المنطاد من شيكاغو.

قلت: ـ أني رهن إشارتك. ألا تدعني أصعد. سأكون معك يوماً.
ولسوف تندم عندما تراني أطوف حول العالم بقاربي الخاص.

قال لوك: ـ انصرف.

ـ من فضلك، دعني أصعد بالمنطاد، ولسوف أدعك تطوف حول العالم بالقارب معي.

كان إرنست وسِتْ وأخته دوروثي يقفان أمام الكنيسة عندما كنا هناك. ودخلت مرجريت وأخت إرنست إلى فناء الكنيسة معاً، وظللت أنا ولوك وارنست واقفين على الطوار.

قال إرنست للوك: ـ (**بالكا إسكوز**).

قال لوك: ـ (**إيميل**).

قلت: ـ ماذا تعني هذه الكلمات يالوك؟

قال لوك: ـ لاأستطيع أن أخبرك. انها لغتنا السرية.

قلت: ـ قل لي ما تعنيه يالوك. ولن أُخْبِرَ أحداً.

قال إرنست: ـ لا..

ثم قال للوك: ـ (**افَّين أونتور**).

قال لوك: ـ (**جاريك هوبين**).

ثم أخذا يضحكان. ضحك إرنست وهو يقول: ـ (**جاريك هوبين**).

قلت: ـ قل لي يالوك، وأَعِدُكَ بألاَّ أجعل شخصاً آخر غيرنا يعرف المعنى.

قال لوك: ـ لا..

وقال: ـ لاأعرف كيف..

دقَّ جرس الكنيسة، فدخلنا وجلسنا. جلس لوك وإرنست معاً. طلب مني لوك أن أبتعد عنهما. جلست خلفهما في الصف التالي. وفي الصف الأول، جلست أليس سمول. تجوّل والدها ـ واعظنا ـ في ردهة الكنيسة، ثم صعد الدرج إلى منصة الدرس الخاصة به، حيث يُلقي خطبه. كان

رجلاً فارع الطول، يبتسم لكلِّ شخصٍ، قبلَ وبعدَ إلقاء الخطبة. أما أثناء الخطبة، فإنه لايبتسم أبداً.

غنَّينا بعض الأغاني، ثم استُدْعِيَ إرنست إلى المنصة، وغنّى هو ولوك فقط: «**في البار، في البار.. حين دخنتُ سيجاري الأخير.. والنكلات والدايمات**[1]. **تدحرجت بعيداً.. تدحرجت بعيداً**».. .

أحسستُ بالغيرة من لوك وإرنست وسِتْ. فقد عرفا كيف يتمازحان، حتى وهما في الكنيسة. ونادراً مايلتفت إرنست إلى لوك، ويقول له: (**أركِل روبر**)، فيرد عليه لوك: (**هاجيد أوسوم**)، ثم يحاول كل منهما أن يكتم الضحك. نجحا في السيطرة على نفسيهما بكل جهدٍ مستطاع، إلى أن الغناء بصوتٍ عالٍ، ثم عبّرا عمّا يجيش بصدريهما من ضحكٍ بهذا الجانب من لغتهما السريةً. فشعرتُ أني تعيس لأني بعيد عن الموضوع بِرمته.

قلت، وأنا أتظاهر بالمزاح: ـ (**أركِل روبر**)..

ولكن لافائدة. فمن المؤلم ألا يكون معروفاً ماتعنيه «**أركِل روبر**». وخمَّنتُ أنها تعني شيئاً طريفاً لايعنيه أيّ شيءٍ آخر مُتَعَارَفٍ عليه، لكني لم أعرف ماتعنيه. قلت: ـ (**هاجيد أوسوم**)..

وشعرتُ بأسى. ذات يوم، ينبغي عليّ أن أستنبط أطرف لغةٍ في العالم، وألاَّ أدع لوك وارنست يعرفان ماتعنيه كلماتها. كلُّ كلمةٍ فيها تبعث في السعادة، ويتحتّم عليَّ ألا أتحدث بلغةٍ غيرها. ويقتصر معرفة هذه اللغة السرية عليّ وعلى شخصٍ ممّن أعرف فقط. أليس سمول، أليس فقط وأنا. (**أوبر لينتن**). ينبغي أن أقولها لأليس، وستدرك المعنى الجميل لها، وتلتفت لها، وتلتفت إليَّ وتبتسم، ألمس رأسها بيديّ، وربما أقبلها.

نهض هارفي جيلز، مشرفنا، من المنصة وحدَّثنا عن عمل الارسالية المشيخية، وأننا نساعد البلاد الأجنبية في العالم بما تتبرَّع به

---

(١) الدايم: عملة أمريكية تساوي عشرة سنتات .

قال بصوتٍ عالي النبرة: ـ في جنوب أفريقيا، أعزائي الصغار، يُحقق رُعَاتنا الصالحون معجزاتٍ كلَّ يومٍ باسم السيد المسيح. فقد تعلّم البدائي الفطريُّ الانجيلَ المقدس والحياةَ الصالحة، ونفذ السَنَا إلى الأعماق الأكثر اظلاماً للجاهل. ونجحنا في جلب السرور والصلاة لله.

قال لوك لارنست: ـ **(أمبر جمبر، هارڤي جيليز..)**

وجاهد لوك كي يمنع نفسه من الضحك.

فأحسستُ أني بلا جليس.

وإذا عرفتُ مايعرفونه.. **(أمبر جمبر، هارڤي جيليز..)** فقد يعني هذا كثيراً من المعاني عن ناظرنا. كان خوَّافاً ويتحدث بصوتٍ عالي النبرة. ولاأظنّ أن أيّ شخص ـ فيما عدا أليس سمول ـ قد صدَّق كلمة واحدة مِمَّا قال.

قال: ـ إن أبطالنا النبلاء، في هذا المجال، يعملون على مداواة المرضى. وهم يُضَحُّون بالحياة والجسد ليُهيئوا الناس لمجيء السيد المسيح. وهم يدعون لرسالته الحقّ في الأطراف المترامية من الأرض. فلندعُ لهم بالتوفيق. هل تدعين ياآنسة فالنتين؟ هلاّ فعلت؟ ..إنّها تنتظرُ طيلةَ الأسبوع الفرصة السانحةَ للدعاء.

نهضتْ الآنسة فالنتين عن مقعد الأرغن الخشبي، خلعت نظارتها ومسحت عينيها. انها امرأة في الأربعين أو نحو ذلك، وهي التي تعزف على الأرغن بكنيستنا. عزفت عليه كما لو أنها تتوجّع من شخصٍ ما، وأرادت أن تُهَدِّىء روعها، ضاربة بعنفٍ على المفاتيح، مُلْتفتةً من حينٍ لآخر لتسترق نظرة خاطفة على الحاضرين. يبدو عليها وكأنها كرهت كلَّ انسان. لقد حضرتُ الحديث الديني مرتين فقط طوال حياتي، وفي المرتين، ألفيتها تفعل نفس الشيء، ومن حينٍ لآخر، تُومىء برأسها وهي تُنصت باهتمام إلى مايقوله واعظنا، وكأنها الشخص الوحيد في الكنيسة الذي يفهم مايعنيه.

والآن، تنهض لتدعو لارسالياتنا الشجاعة في ظلمات أفريقيا، والأماكن البدائية الأخرى في العالم.

قال إرنست للوك: ـ (**إكسل سورجا**)..

أجاب لوك: ـ أنت قلتها، بالإضافة لِمَا قلت.

أخذتْ الآنسة فالنتين تدعو: ـ ياالله ياقدير يارحيم. لقد أذنبنا وضَلَلْنَا عن طريق هِدَايتك كالخِرَاف الضالة.

وما إلى ذلك من قولٍ مُعَاد.

رأيتُ أن هذا الكلام من المفروض أن يُوجَّه إلى رجالنا النبلاء، لكن كلّ ماذكَرَتْهُ كان عن الضلال وارتكاب المعاصي، بدلاً من اتباع سبيل الرشاد. واصلتْ الآنسة فالنتين الدعاء فترةً أطولَ مِمَّا ينبغي.

وخمَّنتُ، للوهلة الأولى، أن هارفي جيليز يتجه ليلمس ذراعها حتى يضطرها أن تفتح عينيها وهو يُحَدِّثها.. كفى هذا ياآنسة فالنتين، لهذا الصباح.. لكنه لم يتفوَّه بشيءٍ. فتحتُ عينَيّ في نفس اللحظة التي بدأتْ فيها دعاءها. أنت تفترض أن تُبقي عينيك مغلقتين، لكني دائماً أفتح عينَيَّ لأرى مايدور في الكنيسة.

لاجديد في كلّ مايحدث. لقد انحنت كل الرؤوس، ماعدا رؤوس لوك وارنست وأنا، ومازال لوك وارنست يهمسان، كل إلى الآخر، بأشياء طريفة وبلغتهما السرية. ولقد لمحتُ أليس سمول وهي تحني رأسها أكثر من أيّ شخصٍ آخر، فقلت: ـ في يوم ما، دعني ياإلهي أتحدث إلى أليس سمول بلغةٍ سريةٍ خاصةٍ بنا، لايفهمها أيُّ شخصٍ في العالم...آمين.

أخيراً، انتهت فالنتين من دعائها، قصدتُ ركناً بالكنيسة يتدارس فيه الأولاد من سن السابعة إلى الثانية عشرة قصصاً من الكتاب المقدس، ويضعون في السلة صدقة يوم الأحد.

عاد كل من لوك وأرنست يجلسان معاً، وطلبا مني الابتعاد عنهما. فجلستُ خلفهما جهة اليمين، لأتأكد أن لوك سيضع نكلته.

في كلّ أحدٍ يُعطون لكلٍ منا نسخة من مجلة مدرسة الأحد الصغيرة، اسمها: «دنيا الأولاد»، تُعنى بالأولاد الصغار الذين يخدمون كبار السن والمكفوفين والعرجان، وتقدم النصيحة فيما ينبغي عمله. وذات مرة، حاولتُ أنا ولوك عمل عربة يدٍ بعجلةٍ واحدة، لكننا لم نجد عجلة. فحاولنا بعد ذلك عمل أيّ شيء. وبالصفحة الخلفية نصائح مزدانة بصور.

مدرسنا هو هنري باركر. يتميز بارتدائه نظارة سميكة، وحول فمه تتناثر بثور صغيرة حمراء. يبدو مريضاً، وليس ثمّة شخص يرتاح له. وأحسب آنه لايوجد شخص أحبَّ مدرسة الأحد بصفةٍ عامة. نحن نذهب لأن أبانا قال أن الضرر ينبغي أن يكون أقلَّ من النفع. قال:

ـ وبعد ذلك، عندما تكبرون في السن يمكنكم أن تختاروا بين الامتناع عن الذهاب أو الاستمرار.

وقال: ـ أمّا الآن، فإنّه نظام بديع.

قالت أمي: ـ هذا صحيح.

لهذا نذهب. ربما اعتدنا على الذهاب لأننا لم نعترض أبداً. وليس ثمّة أمور أخرى يُمكن تأديتها صباح الأحد بأيِّ شكل من الأشكال. وقد ذهب إرنست وسِت أيضاً، وأعتقد أن هذا هو السبب الذي يجعل لوك يحاول الهرب من مدرسة الأحد. وفي امكانه دائماً التحدث مع إرنست وسِتْ بلغتهما السرية، ويضحكان من كلّ شخص.

كانت القصة هي قصة يوسف واخوته، يوسف بالقميص الملوّن الزاهي، وفجأة أخذ الفصل كلّه يتحدث عن السينما.

قال لوك لارنست: ـ آه ـ ها..

قال هنري باركر: ـ الآن، أريد من كلٍّ واحدٍ أن يذكر لي سبباً واحداً مقبولاً، ينبغي، بناءً عليه، ألا يذهب أيُّ واحدٍ إلى السينما.

وكان في الفصل سبعة صبيان.

قال بات كاريكو: ـ السينما تعرض لنا النساء يرقصن عاريات. وهذا سببٌ يضطرنا إلى عدم الذهاب.

قال هنري باركر: ـ حسناً. أجل، هذا سبب مقبول.

قال تومي سيزار: ـ انهم يعرضون لنا اللصوص وهم يقتلون الناس، وتلك معصية.

قال مدرسنا: ـ حسن جداً.

قال إرنست وِستْ: ـ نعم، لكن اللصوص دائماً يُقتلون عن طريق رجال الشرطة، أليس كذلك؟ فدائماً يَلْقى اللصوص جزاءهم في النهاية، أليس كذلك؟ هذا ليس سبباً.

قال تومي سيزار: ـ أضف إلى ذلك إنّها تعلّمنا كيف نسرق.

قال هنري باركر: ـ أني أميل إلى الاتفاق مع رأي السيد سيزار.

وقال: ـ أجل، إنّها تُقدِّم لنا المثال السيء.

قال إرنست وِسْت: ـ أوه، هذا صحيح.

نظر إلى لوك بإمعان. وَهَمَّ أن يقول شيئاً باللغة السرية، لكنه في هذا الوقت بالذات، لم يكن في حاجة إلى ذلك، لأن لوك كان قد غرق في الضحك بصوتٍ عالٍ، بلا سبب، وبالتالي ضحك إرنست معه. بدا الأمر كما لو أن لوك قد عرَف مايريد إرنست أن يقوله، وأن شيئاً مسلياً وظريفاً جداً جعلهما يضحكان.

قال مدرسنا: ـ ماهذا؟ ضحك في مدرسة الأحد؟ على أيِّ شيء تضحكان أنتما الأثنين؟

قلت لنفسي: سأحدّثه عنهما، وأقول له إن لهما لغة سرية.

وأردتُ حسم الموضوع. لكن هذا يُؤدي إلى افسادها. انها لغة مسلية جداً، ولا أريد افسادها، حتى لو كنت لاأستطيع فهم كلمةٍ منها.

قال لوك: ـ لاشيء. ألا يمكن لزميلٍ أن يضحك؟

وجاء دور جاكوب هايلاند. وكان جاكوب أكثر الأولاد صمتاً. إنّه لايقدر على التفكير في شيء. ولايتمكن من الإدلاء بأية إجابة. إنّه عاجز حتى عن التخمين!.

قال السيد باركر: ـ الآن، قل لنا سبب عدم تفضيلنا الذهاب إلى السينما.

قال جاكوب: ـ لاأعرف سبباً.

قال السيد باركر: ـ تعال، بالتأكيد أنتَ تعرف سبباً مقبولاً لعدم تفضيلنا الذهاب.

بدأ جاكوب يفكر. أعني، بدأ ينظر في أرجاء الغرفة، ثم إلى قدميه، وإلى السقف، بينما ننتظر جميعاً أن نسمع مايفكر فيه.

أخذ يفكر طويلاً، ثم قال: ـ أعتقد أني لاأعرف سبباً، ياأستاذ باركر.

قال مدرسنا: ـ إنّي أسألك. أنا أعرف السبب، لكني أريدك أن تعرفه لنفسك. والآن، تعال واعطني سبباً واحداً ياسيد هايلاند.

أخذ جاكوب يفكّر في الموضوع برُمّته، من جديد، وتألّمنا جميعاً من أجله. فأيُّ شخص في مقدوره تحديد سببٍ ولو صغير، أيُّ شخصٍ ماعدا ولدٍ صمَوتٍ مثل جاكوب. لاأحد يعرف ماالذي يُضطره إلى مثل هذا الصمت. وهو أكبر سناً من أيّ شخصٍ آخر في فصلنا. كثير الحركة وهو جالس على كرسيه. أخذ يُمسك بأنفه ويحكُّ رأسه، ناظراً إلى الأستاذ باركر مثل نظرة كلبٍ إلى شخصٍ يطمع أن يكون صديقاً له.

قال مدرسنا: ـ حسناً؟

قال جاكوب:ـ أقول صدقاً، أنا لاأعرف سبباً. وأنا لاأذهب كثيراً إلى السينما.

قال مدرسنا: ـ لاشك أنك ذهبت إلى السينما ذات مرة. أليس كذلك؟

قال: ـ نعم. أكثر من مرة، لكني أنسى بسرعة. لاأتذكر.

قال مدرسنا: ـ لاشك أنك تتذكر شيئاً صغيراً واحداً قد شاهدته في السينما، وكان مثالاً سيئاً، وسبباً يضطرنا إلى عدم الذهاب نهائياً.

أشرق وجه جاكوب فجأة بابتسامة كبيرة. فقال: ـ أعرف..

قال مدرسنا: ـ أجل؟

ـ انها تعلمنا كيف نَرْمي أعداءنا بفطائر حلوة المذاق، ونضرب السيدات ونجري.

قال الأستاذ باركر: ـ هل هذا كلّ ماتتذكر؟

قال جاكوب: ـ أجل، ياسيدي..

قال إرنست وِسْت: ـ هذا ليس سبباً. ماالخطأ في قذف فطيرةٍ حلوةِ المذاق؟

قال جاكوب: ـ أن يعاديك ويقطع الصلة بك..

واستغرق ضاحكاً ماوسعه الضحك، قال:

ـ أنت تعرف كيف تنزُّ القطرات على وجه رجل.

قال السيد باركر: ـ إنّه خطأ مؤكد، أن تضرب سيدة..

قال: ـ حسن جداً، ياسيد هايلاند، لقد تَمَكَّنْتَ الآن أن تتذكر بِمَا فيه الكفاية.

ثم جاء دور نلسن هوليجم، فقال:

ـ انها باهظة التكاليف. انها تُكَلِّف كثيراً جداً.

قلت: ـ تكلف نكلةً واحدةً فقط في (البيجو). هذا ليس سبباً.

قال نلسون: - تستطيع أن تشتري رغيف خبزٍ بالنكلة. النكلة مبلغ كبير في أيامنا هذه.

قال السيد باركر: - حقاً. أنه سبب قوي جداً. ثمة سبلٌ كثيرة تعود علينا بالنفع إذا صرفنا فيها أموالنا. إذا توقف شبابنا عن الذهاب إلى السينما، وتوجيه نقودهم إلى نشاط الارسالية، والتفكير في التقدم الكبير الذي يتحقق خلال سنةٍ واحدةٍ فقط. والنتيجة، أننا نستطيع تحويل العالم كلّه إلى المسيحية بالنقود التي ننفقها سنوياً على الترفيه العارض كالسينما.

وأومأ السيد باركر لإرنست وسْت.

قال إرنست: - تغرس السينما في نفوسنا عدم الرضا بما هو متاحٌ لنا، حيث نشاهد أناساً يتريّضون في عرباتٍ فارهة، ويسكنون منازل فخمةٍ فتأكلنا الغيرة..

قال السيد باركر: - والحقد.

قال إرنست: - ونتمنى الحصول على الأشياء كلّها، بينما نحن لانستطيع الحصول عليها، لأننا لانملك المال اللازم لشرائها، لهذا نُصاب بالإحباط.

قال السيد باركر: - سبب وجيه.

جاء دور لوك، وبعده يجيء دوري.

قال لوك: - الموسيقى رديئة.

قال تومي سيزار: - لاتهمّ حرية الاختيار، أو حتى السينما. هذا ليس سبباً.

قال لوك: - إنّ مايُعرض في (البيجو) شيء رديء..

وقال: - انهم يُؤدُّون أغنيةً واحدةً مراراً وتكراراً على بيانو آلي.. هكذا على نفس الوتيرة.. **عرس الرياح**..

قال تومي سيزار: - ليس هذا بصحيح. ففي يعض الأحايين يُؤدُّون أغنية أخرى، لاأعرف اسمها. وقد يؤدُّون ست أو سبع أغنيات.

قال لوك: ـ انها تتشابه جميعاً، وتجلب لك الصداع.

قال مدرسنا: ـ الآن، حققنا تقدماً. فهي تجلب الصداع، أي تضرُّ بصحتنا. وينبغي إلاَّ نُقدم على شيءٍ ضارٍ بالصحة، فالصحة أغلى مانملك. ويتحتم علينا أداء الأعمال المفيدة لصحتنا، أكثر من تلك التي تضرها.

وقلت إنّه يتوجب علينا ألا نذهب إلى السينما لأننا عندما نخرج من الصالة، نفتقد حبنا لبلدنا.

قلت: ـ كلّ شيءٍ تافه في بلدنا. نريد الهرب منها.

ثم حان وقت إمرار السلَّة. انخرط الأستاذ باركر في حديثٍ قصيرٍ عن الاحتياج العاجل للنقود، لهذا فإن اعطاء النقود أفضل بكثيرٍ من أخذها.

وضع تومي سيزار سِنْتَين، وبات كاريكو ثلاثة، ونلسن هوليجم سنتاً واحداً، ووضع جاكوب هايلاند نكلةً واحدة. وعندما وصلت السلة إلى إرنست وِسْت، ناولها للوك، ولوك ناولها لي، فأعدتُها إلى الأستاذ باركر. ولم نضع نقوداً. اخرج الأستاذ باركر كيساً من جيبه. وخشخش ببعض العملات، وأخرج رُبْعاً بطريقةٍ مُلْفِتة للنظر، ووضعه مع العملات الأخرى، كان متباهياً. وكره كلُّ واحدٍ منّا هذا التباهي، حتى الولد الصامت جاكوب هايلاند. فقد بدا الأستاذ وكأنه يُنقذ العالم بأسره بربعه هذا.

ثم أعطى كُلاًّ منّا نسخة منْ «دنيا الأولاد»، وانتهى الدرس. فقفز كل واحدٍ وهو يجري إلى الطوار. قال إرنست وِسْت للوك:

ـ حسناً، (**أبليكا**)، حتى نلتقي ثانية.

قال لوك: ـ (**أبليكا**)..

ثم خرجت أختي الصغيرة مرجريت من الكنيسة، وسرنا متجهين إلى البيت.

التفتُّ إلى الصفحة الأخيرة من «دنيا الأولاد»، وصادفت الإعلان عن المنطاد. وقد أظهرت الصورة ولدين يرتفعان في السماء، وهما واقفان في سلّة المنطاد. يبدو على الولدين الأسى وهما يُلوِّحان بتحية الرحيل.

وصلنا البيت، وتناولنا غداء الأحد. على المائدة، كان أبي وأمي سعيدين، وأخذنا نأكل حتى لم نستطع تناول المزيد، قال أبي:

ـ ماموضوع الدرس يالوك؟

قال لوك: ـ عن مساوىء السينما.

قال أبي: ـ وماهي المساوىء؟

قال لوك: ـ نساء يرقصن عاريات، ولصوص يقتلهم رجال الشرطة، كما أن السينما غالية الثمن، ونتعلّم منها رمي فطائر باللبن والسكر.

قال أبي: ـ إنّي أرى الضرر كبيراً.

وبعد الغداء، لم أقوَ على التفكير فيما أعمل. ولولا ماأنا فيه من خوف شديد، لذهبتُ إلى منزل أليس سمول وقلت لها إني أحبها.. «أليس، أود أن أقول لك: أحبك». لكني خائف. وإذا كان لدي قارب لطفتُ به حول العالم. وفكرتُ في المنطاد، كان لوك في الفناء يُسَمِّر قطعتي خشب معاً.

قلت: ـ ماذا تصنع؟

قال لوك: ـ لاشيء. مجردُ دقّ مسامير.

قلت: ـ هاك نكلتي يالوك. متى يحضر المنطاد لأتمكن من الصعود معك؟

حاولتُ أن أُعطيه النكلة، لكنه لم يشأ أن يأخذها. قال:

ـ لا. إن الصعود بالمنطاد مُقْتَصِرٌ عليَّ وعلى إرنست وِسْت.

قلت: ـ وهو كذلك، سأكون نداً لك..

قال: ـ انصرف..

كان الجو ساخناً جداً. جلستُ على العشب البارد، تحت شجرة الجُمَّيز، راقبتُ لوك وهو يدق الألواح معاً بالمسامير. إنّ الطريقة التي يدق بها المسامير تجعلك تظن أنه يصنع شيئاً، ولاأستطيع التسليم بغير ذلك إلى أن أنهى الألواح كلّها. فقد سمَّر عشرة ألواحٍ معاً، هذا كلُّ ماقام به. وقد سمَّرها جيداً، لكنها لم تصنع شيئاً ذا بال.

سمع أبي صوت الدق فخرج وهو يدخن غليونه. قال: ـ ماذا تصنع بهذا؟

قال لوك: ـ بهذا؟

قال أبي: ـ أجل، ماهذا؟

ـ لاشيء.

ـ عظيم.

استدار أبي وقفز عائداً.

قال لوك: ـ عظيم؟

قلت: ـ لم تُنشيء شيئاً. لماذا لاتصنع مايفيد؟

تناهى إلى مسمعي غناء أبي بالداخل. أعتقد أنه كان يُجَفِّف الأطباق لأمي. غنّى بصوتٍ عالٍ، ثم بدأت أمي تغني معه.

توقف لوك عن تسمير الألواح، وألقى بها على مأوى السيارات.

جرى حول المأوى، ثم عاد وأخذها مرة ثانية. قلت: ـ ماذا تلعب؟

قال لوك: ـ لاشيء.

ـ فلنذهب معاً يالوك إلى (البيجو).

ـ أنا وأنت؟

ـ بالتأكيد. تأخذ نكلتك، وآخذ نكلتي، ونذهب لمشاهدة طرزان.

- إنّي أدخر للمنطاد. معي الآن دايم واحد. سأنتظر ثمانية أسابيع
على الأكثر، ثم أترككم في رعاية الله.

قلت: - في رعاية الله؟

قال لوك: - أجل، في رعاية الله.

- لن تذهب يالوك بعيداً، أليس كذلك؟

- بالتأكيد. عَلامَ ذهب تفكيرك فيما أسعى أليه؟

- فهمتُ منك يالوك أنك لن تعود مرة ثانية، أبداً؟

- لابد من الرجوع. سأرحل شهراً أو اثنين، لكني سأرجع.

- أين ستذهب، يالوك؟

- سأتجه شمالاً، إلى كلونودايك.

- هل تصعد من هناك، يالوك، في تلك الأرض الباردة؟

- بالتأكيد. أنا ورفيقي إرنست وِسْت. **(بالكا إسكوز)**.

- ماذا تعني، يالوك؟ قل لي، من فضلك. ماذا تعني **(بالكا إسكوز)؟**

قال لوك: - لايعرف معناها سواي أنا ورفيقي.

- لن أقول لأيّ شخص، يالوك. بالأمانة لن أقول.

- سوف تذهب وتُخبر شخصاً ما.

- أتمنّى أن أموت ولايتحوّل ما في قلبي إلى لساني.

- إذا فعلت، فسأجرح لسانك بالإبر.

- نعم يالوك، بالإبر والحديد الساخن أيضاً.

- كلمة شرف معك؟

- نعم يالوك. ماذا تعني؟

قال: - **(بالكا إسكوز)؟**

- نعم، يالوك. **(بالكا إسكوز)**.

قال: ـ صباح الخير. إنّها تعني «صباح الخير».
ـ لاأعتقد هذا. هل هذا كلُّ ماتعنيه، يالوك؟
ـ هذا كلُّ ماتعني «**بالكا إسكوز**». ولنا لغة شاملة.
ـ (**بالكا إسكوز**)، يالوك.
قال: ـ (**إيميل**).
ـ ماذا تعني (**إيميل**)، يالوك؟
ـ (**إيميل**)!.
ـ ماذا تعني (**إيميل**)، يالوك؟
ـ (**إيميل؟**)
ـ نعم، يالوك.
ـ ألن تقولها لأحد؟
ـ كما اتفقنا من قبل.. حديد ساخن يسلخ لساني.
قال لوك: ـ أهلاً. (**إيميل**) تعني أهلاً.
قلت: ـ فلنذهب إلى (البيجو)، فمع كلٍ منَّا نكلة.
ـ وهو كذلك. فالموسيقى لاتجلب لك صداعاً. هذا ماقلته بالضبط.
ـ أخبر أمي يالوك.
ـ ربما هي لاترغب في ذهابنا.
ـ ربما توافق. قد يضطرها أبي أن توافق.
دخل لوك وأنا. كان أبي يُجفف الأطباق التي تغسلها أمي. قال لوك:
ـ هل يمكننا الذهاب إلى (البيجو)؟
قال أبي: ـ ماهذا؟ أحسب أن الدرس كان عن أضرار السينما.
قال لوك: ـ نعم، ياسيدي.
قال أبي: ـ حسناً، هل يسمح ضميركم؟

وقالت أمي: - أوه، ماذا تعرض؟

قلت: - طرزان. هل يمكننا الذهاب، ياأمي؟ نحن لم نَضَعْ نكلاتنا، وفّرها لوك للمنطاد، لكنه لا يريدني أن أصعد معه.

قال أبي: - ألم تضعا نكلتيكما؟ ماالدين الذي تعتنقانه؟ إنَّ أول شيء تعرفانه أن مبعوثي ارساليات الكنيسة المشيخية سيحزمون أمتعتهم ويرحلون عن أفريقيا مالم تواظبا على إمدادهم بالنكلات.

قال لوك: - أظن ذلك. لكني أنا وارنست وِسْت ندخر لشراء منطاد. ومعنا مايكفي لهذا.

- مانوع المنطاد؟

- إنّه منطاد حقيقي، يقطع ثمانين ميلاً في الساعة، ويحمل شخصين، أنا وارنست وِسْت.

قال أبي: - كم يتكلف؟

قال لوك: - دولاراً واحداً. ويأتي من شيكاغو.

- سأخبرك بالطريقة. إذا نظّفتَ مأوى السيارات بعناية، وحافظت على الفناء نظيفاً حتى الأسبوع القادم، فسأعطيك دولاراً يوم السبت. هل اتفقنا؟

قال لوك: - سأقول...

قال أبي: - بشرط أن تدع مارك يصعد معك.

- إذا ساعدني في العمل.

- سيساعدك. أليس كذلك، يامارك؟

قلت: - ساشتغل أكثر من لوك.

أعطانا أبي عشرة سنتات زيادة لكلّ منا، ووافق على ذهابنا إلى السينما. ذهبنا إلى (البيجو) وشاهدنا طرزان، الحلقة الثامنة عشرة. ويتبقى فصلان

آخران. كان هناك تومي سيزار، وبات كاريكو. وأحدثا جلبةً عندما ضيَّق طرزان الخناق على النمر، أكثر من الجلبة التي نُحدثها كُلنا معاً.

نظفتُ أنا ولوك مأوى السيارات نظافة تامة، وحافظنا على نظافة الفناء طوال الأسبوع، وفي ليلة السبت، أعطى أبي للوك حَوَالةً بدولار. فجلس لوك وكتب رسالة لطيفة إلى المسؤولين عن بيع المنطاد في شيكاغو. ووضع الحوالة والرسالة في المظروف، وضع الخطاب في صندوق البريد الجوي، ذهبتُ معه إلى مكان الصندوق.

قال: ـ الآن، ليس أمامنا شيء نعمله سوى الانتظار.

انتظرنا عشرة أيام. وتحدثنا عن كلِّ الاماكن الغريبة الحالمة التي سنتجه إليها بالمنطاد.

أتى المنطاد. كان الطرد مسطحاً صغيراً، وبنفس الشكل الذي طالعناه في الصورة المنشورة في مجلة (دنيا الأولاد)، وعلى الصندوق لُصِقَ طابع البريد. الطرد لايزن رطلاً، ولاحتى نصف رطل. اهتزّت يد لوك وهو يفتح الصندوق. وأصبتُ بألمٍ، لأني أخطأت التقدير. بداخل الصندوق، هناك قصاصة ورقٍ عليها بضعة سطورٍ مكتوبة، تقول: الأولاد الأعزاء:

هنا منطادكم، مُرْفَقٌ به تعليمات تُوضّح كيفية استخدامه. إذا اتبعتم التعليمات بكل دقة، فإن هذه اللعبة ستعلو وتبقى عالية لمدةٍ تصل إلى عشرين ثانية.

اتبع لوك التعليمات بدقة، ونفخ بداخل كيس الورق الرقيق حتى امتلأ كلّه وتشكل على هيئة منطاد. ثم تمزق الورق وتقوض الشكل كلُّه، مثلما يحدث للبالون المطاطي.

هذا كل مافي الأمر. هكذا كان منطادنا. لم يتوقع لوك ماحدث. قال:

- ان الصورة تُوَضّح ولدين يقفان داخل السَلة. وقد حسبتُ أن المنطاد سيُنقل من قطار شحن. وبدأ يتحدث بلغته السرية.

قلت: - ماذا تقول، يالوك؟

قال: - شيئاً لن تفهمه.

وحطّم المنطاد المهمل، مزق الورقة الرقيقة إلى قطع صغيرة، ثم خرج إلى المخزن، وتناول بعض الألواح والمسامير والشاكوش، وبدأ يُسمّر الألواح معاً.

اليوم المدرسي الأول

هو ولد صغير اسمه جيم، وهو الطفل الأول والوحيد للدكتور لويس دافي: ٧١٧ مبنى (ماتي). واليوم هو أول يوم له في المدرسة. أبوه فرنسي. كان أبوه فرنسياً، ورجلاً صارم الملامح في الأربعين، ممّا أفعم صباه بالشقاء والتعاسة والطموح، ماتت أمه: لقد ماتت عندما وُلِدَ جيم. وكانت إيمي - مُدَبِّرة المنزل - هي المرأة الوحيدة التي ارتاح لمعشرها.

ألبسته إيمي زيَّه المدرسي. وأخذته إلى المدرسة. جيم أحب إيمي، وهو لايحبها لأنها تأخذه الى المدرسة. قال لها ذلك. وطوال الطريق إلى المدرسة يقول لها ذلك..

قال: - أنا لاأحبك، أنا لن أحبك بعد الآن.

قالت المربية: - وأنا أحبك.

قال: - لماذا اذن تأخذينني الى المدرسة؟

فيما مضى، كان يسير مع إيمي متقدماً إيَّاها، طوال الطريق إلى حديقة كورت هاوس، من أجل الفرقة الموسيقية مساء الأحد، أمّا اليوم فانه جِدُّ مختلف.

قال: - لم؟

قالت المربية: - كلّ انسانٍ يجب أن يذهب الى المدرسة.

قال: - هل ذهبتِ الى المدرسة؟
قالت إيمي: - لا..
قال: - اذن.. لماذا أذهب أنا؟
قالت المربية: - سوف تحبها؟
وسار معها صامتاً، مُمْسِكاً بيدها. قال:
- أنا لاأحبك. أنا لن أحبك بعد الآن.
قالت إيمي. - وأنا أحبك.
قال من جديد: - اذن.. لماذا تأخذينني إلى المدرسة؟
قالت. - سوف تحبها. أعتقد أنك ستغني وتلعب الألعاب.
قال: - أنا لاأريد أن أذهب.
قالت: - سأحضر وآخذك بعد ظهر كلّ يوم.
أخبرها من جديد: - أنا لاأحبك.
أحسَّت بأسىً شديدٍ من الولد الصغير الذاهب إلى المدرسة، لكنها استطاعت أن تجعله يذهب.
كان مبنى المدرسة مُوْحِشاً جداً بالنسبة لها وللولد. هي لاتحب مايُوَلّد لديها مثل هذا الاحساس أثناء صعود الدرج معه، ودَّت ألا يذهب الى المدرسة. ولم تسترح إيمي للسيد (باربر).
قال السيد (باربر): - ماسم ابنك؟
قالت إيمي:
- انه ابن الدكتور لويس دافي. اسمه جيم. وأنا مربية الدكتور دافي.
قال السيد (باربر): - جيمس؟
قالت إيمي: - ليس (جيمس)، (جيم) فحسب.
قال السيد (باربر): - وهو كذلك. أهناك اسم أوسط؟

قالت إيمي: ـ لا. هو أصغر من أن يُدعى باسمٍ أوسط. (جيم دافي) فحسب.

قال السيد (باربر): ـ حسناً. سنختبر صلاحيته للصف الأول، فاذا لم يُحقق نجاحاً، فسنختبر صلاحيته لروضة الأطفال.

قالت إيمي: ـ لقد طلب الدكتور دافي أن يلتحق بالصف الأول، وليسَ روضةَ الأطفال.

قال السيد (باربر): ـ وهو كذلك.

فَطِنَتْ المربية الى مَبْعَثِ خوف الولد الصغير، الجالس على الكرسي، وقد حاولت أن تدعه يتأكد بنفسه من مدى حبها له، وكم هي آسفة لكلّ شيء. أرادت أن تقول شيئاً ما. وقد كانت معجبة جداً بالطريقة التي نهض بها عن الكرسي، ووقف بجانب السيد (باربر)، استعداداً للذهاب معه الى الفصل.

وفي الطريق الى البيت، أعلنت له عن اعجابها الشديد به.

كانت مدّرسة الصف الأول، الآنسة بيني، متقدمة في السن، مَمْصُوصَة العروق. كان الفصلُ مكتظاً بالأولاد والبنات الصغار.

للمدرسة طابع غريب وحزين. جلس جيم إلى منضدةٍ وأنصت باهتمام.

سمع بعض الأسماء: شارلز، إرنست، ألفين، نورمان، بيتي، هاناه، جولييت، فيولا، بولي.

أصغى باهتمام واستمع لما تقوله الآنسة بيني.

ـ هاناه وينتر، ماذا تمضغين؟

فالتفتَ الى هاناه وينتر باستحياء. أحَبَّ هاناه وينتر من أول مرة.

قالت هاناه: ـ لُبَان.

قالت الآنسة بيني: ـ ضعيه في سلة المهملات.

شاهد البنت الصغيرة وهي تمشي حتى مقدمة الفصل، تأخذ اللبان من فمها، وتُلقيه في سلة المهملات.

سمع الآنسة بيني تقول: - ياإرنست جاسكين، ماذا تمضغ؟

قال ارنست: - لُبان.

وأحَبَّ إرنست جاسكين أيضاً.

التقيا في فناء المدرسة، وألقى إرنست عليه بضع نكات.

كانت إيمي تنتظر في الصالة وقت انتهاء الدراسة. وكانت مكفهرة وحزينة كلما لمحتْ تلميذاً ما، الى أن شاهدتْ الولد الصغير. دُهِشَتْ لأنه لم يتغير، ولم يتضايق.. لقد كانت المدرسة، وكلّ مايتعلق بها، مخيفة جداً بالنسبة لها. أمسكتْ بيده، وخرجت به من المبنى، يتملكها غضب وزهو.

قال جيم: - ماالذي يلي التاسعة والعشرين؟

قالت إيمي: - الثلاثون.

قال: - وجهكِ قذر.

وعلى مائدة العشاء، جلس أبوه هادئاً للغاية.

وفي الصباح، طلب من أبيه شِلْناً.

قال أبوه: - ماذا ستشتري بالشلن؟

قال: - لُبان.

أعطاه أبوه شلناً. وفي المدرسة، توقف عند محل السيدة (ريلي)، واشترى لُباناً ماركة «سبيرمنت».

سأل إيمي: - أتريدين قطعة؟

قالت المربية: - أتريد أن تُعطيني قطعة؟

فكَّر جيم في هذا لحظة، ثم قال: - نعم.

قالت المربية: - هل تحبني؟

قال جيم: ـ أنا أحبك. فهل تحبينني؟

قالت المربية: ـ نعم.

ـ وهل تحب المدرسة؟

لم يجد جيم اجابة محددة، لكنه ألفى نفسه وقد أحبَّ كلَّ مايختص باللُّبَان، وهاناه وينتر وارنست جاسكين.

قال: ـ لاأعرف.

سألت المربية: ـ هل تغني؟

قال: ـ لا، نحن لانغني.

قالت: ـ هل تمارس ألعاباً؟

قال: ـ ليس وقتَ الدراسة، وانما في الباحة.

وأحبَّ كل مايتعلق باللُّبَان حباً شديداً.

قالت الآنسة بيني: ـ ياجيم دافي، ماذا تمضغ؟

شرد. ثم قال: ـ لُبَان

وخطا الى سلة المهملات، ثم عاد الى مقعده، شاهدته هاناه وينتر، وإرنست جاسكين أيضاً.... وجد جيم ذلك أفضل ما في المدرسة.

انشغل بحاله هذه. صاح في فناء المدرسة: ـ ماذا تمضغ، ياإرنست جاسكين؟

قال إرنست جاسكين: ـ لحمَ فيلٍ نيء. ماذا تمضغ ياجيم دافي؟

وحاول جيم أن يفكر في الشيء الأكثر طرافة في المضغ، فلم يهتدِ إليه.

قال: ـ لُبَان.

وضحك إرنست جاسكين بصوتٍ أعلى من صوت جيم، الذي ضحك عندما قال له إرنست جاسكين أنه يمضغ لحمَ فيلٍ نيء.

انه من الطرافة ألاّ تجد ماتقوله.

أثناء العودة الى الفصل، لمح جيم هاناه وينتر في الصالة.

قال: ـ ياهاناه وينتر، ماأشهر نوعٍ تمضغينه؟

فزعتْ البنت الصغيرة، أرادت أن تقول كلاماً لطيفاً يُعبِّر بصراحة عمّا أحَّستْ به حين سألها هذا السؤال المضحك، مما جعله مثار سخرية. لكنها لم تجد كلاماً لطيفاً تقوله، فهم يتواجدون أغلب الأوقات في الفصل، والوقت غير متسع.

قالت بانفعال: ـ توتي فروتي.

ويبدو أن جيم لم يسمع من قبل مثل هذه الكلمة الرائعة، فظلَّ يُرددها بينه وبين نفسه طوال النهار.

وحكى لأبيه كل ماحدث على مائدة العشاء، قال:

ـ كان هناك تلّ. وفوق التل طاحونة. وأسفل الطاحونة مرعى. وأسفل المرعى مفتاح. فماذا عساه يكون؟

قال أبوه: ـ لاأعرف ما هذا؟

قال الولد: ـ (طامَرْمِفتَا).. [1]

فرحت المربية. قال جيم: ـ طاحونة، مرعى، مفتاح.

ثم قال: ـ توتي فروتي.

قال أبوه: ـ ماهذا؟

ـ لُبان. من النوع الذي تمضغه هاناه وينتر.

ـ من تكون هاناه وينتر؟

---

(١) هذه الكلمة مشتقة من الحروف الأولى من الأسماء الثلاثة: طاحونة ومرعى ومفتاح. والكلمة المنحوتة هي المقابل العربي للكلمة الانجليزية التي اشتقها الكاتب من الأسماء الثلاثة في لغته الانجليزية.

- هي معي في الفصل.

قال أبوه: - أوه.

وبعد العشاء، جلس على الأرض يلعب بالنحلة الصغيرة ذات الألوان الحمراء والزرقاء والصفراء، التي تَزِنُّ أثناء دورانها حول نفسها. رأى أن كل شيء على مايرام. مازال العالم شديد القتامة، وان كان اللُبان مسلياً جداً، وكذلك هاناه وينتر. وخطر على باله لحم الفيل النيء، بفرحٍ داخلي.

قال بصوتٍ عالٍ لأبيه الذي كان يقرأ جريدة المساء: - لحم فيل نييء.

طوى أبوه الجريدة، وجلس بجانبه على الأرض. ورأتهما المربية جالسين جنباً إلى جنبٍ على الأرض، ولسبب ما وانهمرت الدموع من عينيها.



الرجل الذي أصيب بالبدانة

كان ناثان كاتس متهاوناً في حقّ نفسه، قصيراً، ممتلىء الجسم، جاداً في عمله. في السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين من عمره، وكان يصف نفسه بأنه أبدنُ مشتغلٍ بالبَرْق في العالم، وكنتُ وقتها في الرابعة عشرة مُبلِّغ الرسائل بمكتب البرق ببلدتي، حيث اعتدنا - السيد كاتس وأنا - على العمل معاً.

وقد اعتادوا أن ينادونني بالسريع، حيث كنتُ أنتقل بالدراجة من مكتبنا إلى أيّ مكانٍ آخر بالمدينة، أسرعَ من أيِّ مُبَلِّغِ رسائلٍ آخر، سواءً بالبلدة أو أيِّ جهةٍ غيرها. كما صرتُ أُوصف عند بعض الناس بالذكاء، وهمْ بطبيعة الحال أقاربي. ولو أنني، داخل المصعد، أخلع دائماً قبعتي، وأعرف كيف أتصرف اذا كان المنزل الذي أقصده سيء السمعة.

من سان فرانسيسكو، قدم ناثان كاتس الى بلدتي. لم يكن مُشغِّل برقٍ منتظماً، وكان ذا صلاتٍ واسعة.

يقطن ببلدتي غالبية من الأرمن. وقد أحببتُ كلّ شيءٍ عنها، بل المكان كلّه. والبلدة ليست بالمكان البعيد جداً. وعندما قَدِمَ هذا الشخص متوسط الحجم، اللطيف، من فريسكو، قاصداً مكتبنا، كنتُ مسروراً جداً لرؤيته. وفي تلك الأيام، كنتُ أفرح كثيراً لقدوم أيّ شخص من أيّ مكان،

حتى لو لم يكن قادماً من الجانب الآخر، من جهة السكة الحديدية، أو من المنطقة السكنية الراقية.

كانت المنطقة السكنية الراقية من المناطق التي لايستطيع الأرمني أن يشتري فيها منزلاً، حتى لو كان يملك المال.

في بلدتي، اعتادوا أن يحثوا حالَ الأرمن العاديين. كنتُ دائماً أُحمِّل نفسي فوق طاقتها، فأقوم بخلع قبعتي داخل المصاعد، وأكون عطوفاً على أصحاب المشاكل منهم. اعتدت أن أكون أحد الصبية المحبوبين ذوي الأربعة عشر عاماً في وادي سان جواكين بأكمله. اعتدتُ مساعدة السكارى، وتقديم العون البسيط للشبان التعساء الذين لهم مشاكل مع عشيقاتهم، أو زوجاتهم، أو مع أيّ واحدةٍ ليست زوجة. اعتدتُ المجازفة كي أكون مهذباً. حتى لاينتقد أحدٌ من البيض عادات الأرمن وأحوالهم، فهذا مالا أريده.

جلس ناثان كاتس الى منضدة، وضع يده على الجهاز المتهالك، وأخذ يُرسل البرقيات إلى أيّ مكانٍ أسرعَ من أيّ شخص، وكان يهودياً بديناً. استطعتُ أن أنتقل من مكتبنا إلى أيّ مكانٍ آخر بالمدينة، أسرع من أيّ شخص، أياً كان، أنا الأرمني. واستطعتُ التصرف هناك برقةٍ أيضا. ذات مرة، صَدَمْتُ شرطياً، فأوقعني من على دراجتي مقابل ماأصابه من ألم.

بصفةٍ عامة، كنتُ على نحوٍ ما شاباً مثالياً، وكنتُ من فِتْيَةِ الكشَّافة ذوي الخبرة العملية.

الذي أقصده، أننا كنا هناك أسرع اثنين في العالم، ونحن نؤدي عملنا هذا، يهودى وأرمني. ما معنى ذلك؟ كنا دائماً ناجحين. ونُحْرِزُ على الدوام قصب السبق.

لكاتس صلات واسعة: كان عمله أن يذهب بالناس الى الغداء أو العشاء ويرقص معهم رقصةً سريعة، فيُقسمون في اليوم التالي أن يرسلوا برقياتهم عن طريق مكتب البرق البريدي بدلاً من الاتحاد الغربي.

وقد عملنا في مكتب البرق البريدي، تلك المؤسسة الكبيرة، تلك المؤسسة الباردة والتي لاقلب لها مثل الاتحاد الغربي.

اعتاد كاتس أن يتجّول ببدانته المعهودة حول المدينة، وصدره مشدود بضحكته الدافئة، وهو يُخرج سجائره ساعياً لانهاء أعمال تلك المؤسسة الكبيرة. أما أنا فليس في مقدوري نفعُ أيّ مؤسسة. ان كلّ شيءٍ يبدو على مايرام، ومن التفاهة أن أوليه اهتمامي. هم يُبْقُونَ العبيدَ طوال حياتهم عبيداً، ويُبقون كلَّ شيءٍ على حاله كذلك. لعلّ الله يرأف بكلّ المؤسسات. لعلّ الله يسامحهم على صفقاتهم المشبوهة التي يعقدونها مع الرجال. لعلّهم ينكسرون، لعلّ ماكيناتهم تصدأ ولعلّ الله يسامحهم. هم يستغلون حياة الانسان ويعطونه القليل. لعلّ خالق الكون وكلّ الكائنات يسامحهم.

لستُ أجد نفعاً من الماكينات التي تُسَبِّب الآلام. انما أجد النفع مع الرجال الذين يسيطرون على الماكينات. لستُ أجد نفعاً من الماكينات التي تتسبَّب، بمرور الوقت، في البدانة التي تُمثل إعاقةً لحياة الناس، وتستنزف حياتهم. كما لاأجد نفعاً من ذلك النظام.

واذا مادارت آلة ما، فانها تُدِرُّ المالَ الوفير الذي يُصبح من حق العبيد الذين يُديرون الآلة. تلك وجهة نظري. ان مكتب البرق يسير على مايرام. والاتحاد الغربي راقٍ ومنظم. كما إنّ كلّ هيئةٍ أو مؤسسةٍ أمريكية تسير على أكمل وجه، والمال يخصّ العبيد. لكنهم خاضعون الآن. وان كانوا لاينسون نصيبهم من هذا المال.

كيف كان كاتس الفقير على قيد الحياة؟ كيف كان يضحك بصوتٍ عالٍ؟ كيف يعتاد الذهاب وهو مرتاح النفس، الى الغداء، ويراجع قائمة الطعام، ثم يطلب طعامه؟ كيف كان يسكن في الوادي الدافيء، راضي النفس، في المدينة الصغيرة الجميلة؟ انه كاتس الفقير الذي ذهب بعيداً، شأنهم جميعاً.

فلنستعن بالله، إنّي أحب تلك المدينة المتلألئة. أحب كل الناس العادين النابهين. إنهم لايريدون لنا أن نُمارس حياتنا معهم بصفتنا أرمن. وهم أصدقاؤنا وجيراننا الفقراء. إنّ الله قادر على كلّ شيء.

في تلك السنوات، طوال تلك السنوات المليئة بالأحداث، هل تكون جهنم مثواي اذا ما وخرجت من تلك المدينة؟ هل أنا أحبهم؟ هل أنا مُغْرَمٌ بهؤلاء البيض النبلاء الأذكياء. هل هم من الطبقات عالية المستوى رفيعةِ المكانة وتستعصي على الفَنَاء؟

بعض الأرمن بيض، والبعض الآخر سود، بفعل لفحة الشمس، التي دأبت على حرق بشرتهم منذ قرون عديدة، ولاتفسير لذلك الأمر: فهم حقاً، قد لفحتهم الشمس. وان كان البيض منهم، بيضاً من الأصل. أعتقد أن الشمس كانت سبباً. ولو أن اختلاف لونهم، إمّا بيض أو سود، يجعلهم لايُشبهون الأرمن. انهم لايشبهون الأرمن في طريقة ضحكهم بصوتٍ عالٍ.

حسناً. وزِدْ على ذلك أن كاتس طيب جداً. انه يُنجز أعمالاً كثيرة لهذه الهيئة، ذات العمل الدقيق. وقد كنّا اثنين متلازمين. كنتُ أنيقاً، رغم أن أقاربي لايُعيرون ذلك اهتماماً: ويصفونني بأني شديد الذكاء وصريح. وقد أُلممتُ بكلّ الرسائل البرقية التي تصل الى المكتب، وتحذيرات الحريق التي تَرِدُ الى هيئة المطافيء. عرفتُ ذلك كلّه بدافعٍ ذاتي. عرفتُ كيف أكتب على الآلة. وكيف أردّ على الهاتف وأتلقى برقية ما من خلال الهاتف. عرفتُ كلّ هذه الأساليب. عرفتُ كيف أنجز برقية على العدّاد. كما تعلمتُ استعمال المِبْرَقَة.

وبرغم أني مُبَلِّغ رسائل، فقد اشتغلتُ في كلّ شيء. وشققتُ طريقي من القاع الى القمة بعملي فقط: من مُبَلِّغ رسائل الى النائب السادس عشر للرئيس. تلك هي القمة. النائب السادس عشر للرئيس هي القمة، اذا شئت أن تُنسب الى (كلارنس ماشاي). الذي كانت صورته معلقة على جدار مكتبنا. رغم أنه لم يحضر بنفسه أبداً الى مكتبنا. هو لم يحضر أبداً حتى

لزيارة مدينتنا، لم يحدث هذا ولو بدافع اثارة الحماس، كما إنّه لم يفكر في لقاء الأرمن. في الوقت الذي اعتاد عشرات المليونيرات أن يَفِدُوا الى مدينتنا ليقابلوا الأرمن،

لكن كلارنس ماشاي المتقدم في السن لم يفعل نفس الشيء.

اشتهرت بلدتي، ولم تزل، بأنها مركز كاليفورنيا للعنب والزبيب وصناعة تجفيف الفواكه. واعتاد مئات اليهود الصغار، كل صيف، أن يفدوا من شيكاغو وبتسبرج وفيلادلفيا ونيويورك وبوستن، ليعبئوا العربات بالعنب ويتجهوا بها الى مدنهم ويزحموا خطوط السكك الحديدية. واعتادوا أيضاً أن يُرسلوا برقياتٍ كثيرة، وهذا أمر طيب لكاتس المتقدم في السن، وهو يهودي، ذلك لأن مجموعة منهم لاتستطيع الكتابة بالانجليزية، وان كانوا يتحدثون الانجليزية بصعوبة، مما يجعلنا ـ كاتس وأنا ـ نُحددّ الاتجاه الذي يُمكننا أن نخدم فيه.

ومن هذا المنطلق، كانت مساعدتنا في مكانها الصحيح.

يوجد في بلدتي فندق واحد، يُقيم فيه رجال الأعمال ويُمضون أوقاتهم. في هذا الفندق، أنشأ كاتس المتقدم في السن وأنا مكتباً مصغراً للبرق، كان مدعاة للسخرية. يتكون هذا المكتب من منضدة، وآلة كاتبة، وأنا. خُصّص كرسيّ لي وكرسيّ لأيّ شخصٍ يريد أن يبعث ببرقية. واذا كان الشخص لايتكلم بالانجليزية، يخبرني كاتس كبير السن بما ينبغي ملؤه على سطور البرقية..... كنا نُنجز كل الأعمال.

احتفظنا بالمكتب لمدة ثلاث سنوات.

ثم اكتشف كاتس أن كلّ الناس هناك قد انخرطت في جَلَبَةِ الشحن، فأوقف جَلَبَةِ البرق وانخرط هو الآخر في جلبة الشحن، اكتشفت أن كل الناس هناك قد انجزفت في الضجيج، أيّ ضجيج، ثم توقّفوا فجأة عن كلِّ شيء وتركوا المدينة. فذهبتُ أنا الى فريسكو وأمضيتُ بها وقتاً لانفع فيه، واقتصر الحال على تمضية الوقت كيفما اتفق.

لم أعد أرى كاتس لمدة ثلاث سنوات. كان في هذه الفترة شغوفاً بجمع المال. وامتلك سيارة (باكارد) سوداء وكبيرة جداً، وكان يُعاني من ثقل وزنه وفقد شعره. رأيته لمدة دقيقةٍ واحدة. كان قد اشتعل حماسُهُ لجمع المال. اهتمَّ بشحن العنب وتنقيته، وشحن الخوخ وتنقيته. ثم امتد اهتمامه الى كلّ الأنواع وكلّ شيء، فشحن الخس، الكرفس، البطاطس، البصل، وكلّ شيءٍ يُمكن زراعته، تعلّق بهدفٍ ما، بخيطٍ واهٍ.

بالتدريج أقمتُ في (بالسنترو)، بالوادي الكبير، وكان كاتس المتقدم في السن هناك أيضاً. كان مقيماً في أفخم فندق بالمدينة، فندق (بربارا وورث).

وسعيتُ للقائه... انه بدين جداً. أبدن مّما كان عليه في الزمن الماضي، مرتين على الأقل. وكان سريع التأثر. لم يكن يرتدي قميصا. كان متدثراً، بطريقة تُمَكِنُهُ فقط من التنفس. حجرته مضاءة بنوعٍ باهرٍ جداً، بضوءٍ كالذي اعتدنا عليه في مكتب البرق. كانت لديه منضدة وضع فوقها آلة كاتبة. وتتناثر أوراق كثيرة في أنحاء الغرفة وكرتونة لفائف دخان وزجاجتا ويسكي.

عرفتُ منه أنه أصيب بِكَسْر. أسندَ ظهره الى الحائط، كان مريضاً أيضاً... هي البدانة. وكان مصاباً بأضرارٍ كثيرةٍ منها.

تحدثنا كثيراً. وانه لمن المؤلم أن يُصاب كاتس، كبير السن، بالبدانة المفرطة، كان مصاباً بالبدانة، مريضاً بها، بحيث أصبح غير قادرٍ على التنفس، كما أنه يمشي بصعوبةٍ بالغة، وقال: ـ لاأعرف السبب، أعتقدُ أني سأموت.

أيقنتُ أنه لم يُخْدَع بشيء. وأنه يتحرًى الصدق فيما يقول.

شربنا بعض المشروبات، ولاحظتُ أنه عصبي المزاج. كيف يمكن لرجلٍ بدينٍ أن يكون عصبيٌّ المزاج؟ أخبرني أنه لاينام النوم الكافي. فهو يشتغل كلّ الوقت، ويدخن بصفةٍ مستمرة، ويُفْرِطُ في الشراب.

عندما نزلتُ الى الطابق السفليّ، أُجهشتُ بالبكاء. يايسوع المسيح، هاهو كاتس الفقير. كيف يمكن لرجلٍ بدينٍ أن يَضطر شخصاً للبكاء؟ كيف يُمكن أن تنتاب الحسرة انساناً على رجلٍ بدين؟ أرغمتُ نفسي على حبس دموعي.

هاهو كاتس الفقير.

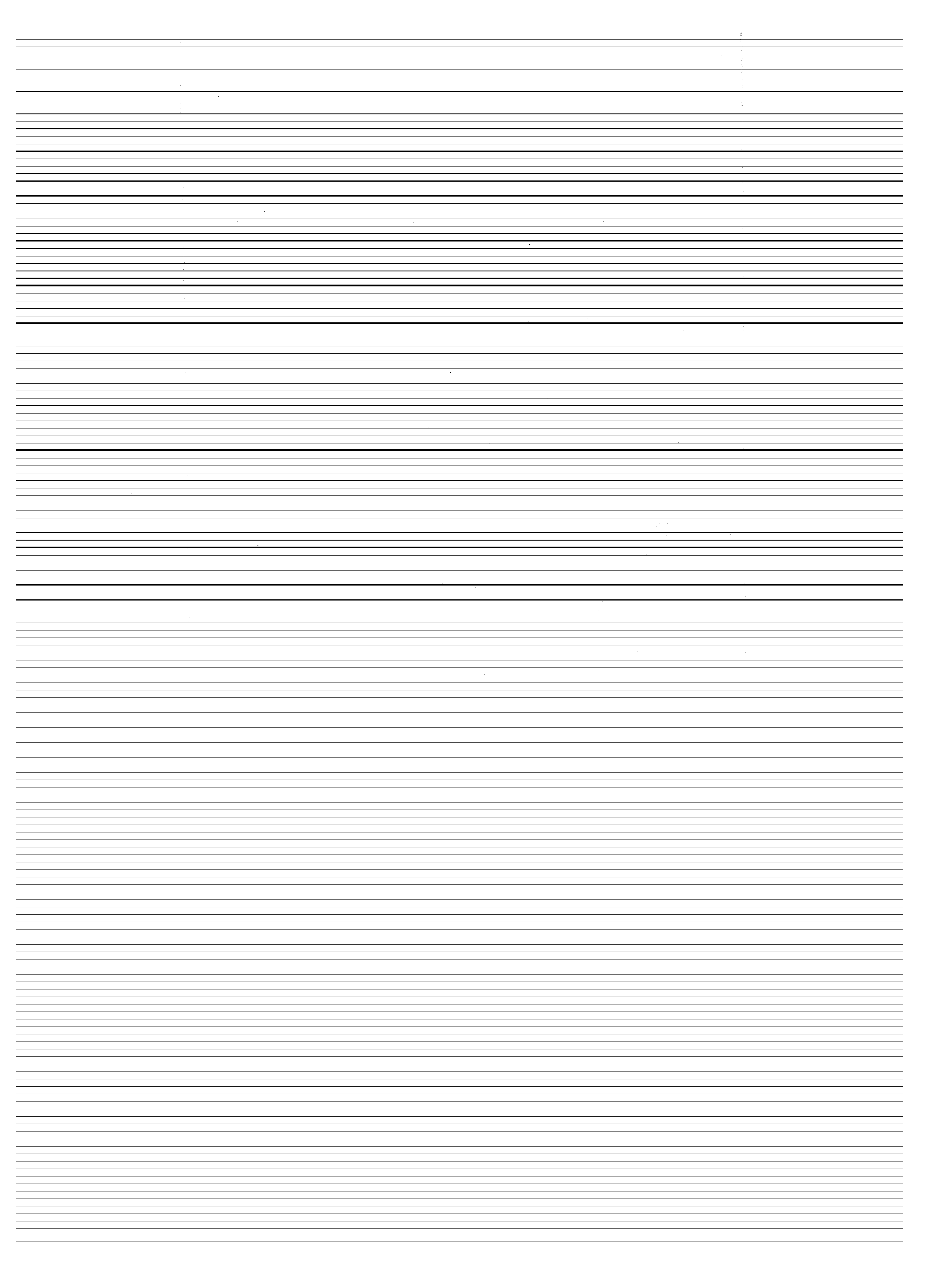
هذه ليست قصة. فأنا لم أكتب شيئاً. ان ذلك اليهودي المنتفخ المستدير، قد أُدركته البدانه فمات.

انه ميت الآن.

أذكر يومَ أن دخل مكتب البرق ببلدتي قادماً من سان فرانسيسكو. أذكر الطريقة التي تحدث وضحك بها، كيف قام بالجلوس الى منضدة مُحْدِثاً الجلبة المعهودة منه، مواصلاً كلامه في نفس الوقت، اني أذكر تلك السنوات الخوالي.

أدركته البدانة ومات. هذا كلّ ماحدث. لاشيء أكثر. أدركته البدانة ومات. فما الجحيم الذي سيُبتلى به؟ لستُ أعرف. لقد كان أسرعَ مُشَغِّل برقٍ في العالم. ووجد ضالته في السير مع الجلبة التي تُدِرُّ المال الوفير. الشيء الآخر الذي أعرفه عنه أنه كان غنياً. ومن ثم فقد أصبح بديناً. وذات ليلة، صعدتُ الى حجرته في فندق بالسنترو، فأخبرني أنه في النَزَع الأخير. هذا ماأخبرني به. ثم مات بعد ذلك بشهرين. وفي الليلة التي قابلته فيها، كان يتنفس بصعوبةٍ بالغة.

لستُ أقصد شيئاً. هذا ماقاله بالضبط، ولستُ أعلم شيئاً عن أيّ شيء. وان كنتُ لأعرف فائدة ستة أو سبعة أشياء في العالم، فانه بفناء هذا الطراز تندثر الأشياء السبعة جميعها.



لم أتمكّن من قصٍّ شعري طيلة أربعين نهاراً وأربعين ليلة، فأصبحتُ مثل عازفي الكمان العاطلين عن العمل. أنت تعرف مثل تلك الهيئة: عبقرية مضمحلة، واستعداد للانضمام الى حزبٍ شيوعي.

ونحن المنحدرين من آسيا الصغرى ذوي الشعر الكث: اذا أردنا قصَّ الشعر، نتقاعس فلا نقصه، لضيق ذات اليد. انه لأمر سيء جداً، فقد فاقت غزارته قبعتي الوحيدة... (اني أكتب قصة جادة، ربما تكون واحدة من قصصٍ جادةٍ أزمع كتابتها. وهذا يجعلني أبدو ثرثاراً. سوف يفهم قُرّاء شيروود أندرسون ماأقوله بعد برهة، ويفطنون الى أن سخريتي تتسم بالحزن الى حد ما).. فأنا شاب في حاجة الى قص شعره، لهذا توجهتُ الى الشارع الثالث بسان فرانسيسكو، حيث مدرسة الحلاقين، كي أقص شعري بخمسة عشر سنتا.

يقع الشارع الثالث بمنطقة هيوارد. انه الشارع الرئيسي في لوس أنجلس: معقل العاطلين من الكبار والصغار، الذي يدخنون (بُل دورهام)، ويتحدثون عن الحكومة، وهم ينتظرون حدوث شيء ما، ينتظرونه بعفوية. وفي صباح يوم اثنين من شهر أغسطس، حضر الى المحل عدد كبير من الصعاليك. وجميع الكراسي الأخرى محجوزة. جلستُ أنتظر دوري. وبعيداً

عن هذا الجو، كما قال هيمنجواي: (هكذا تشرق الشمس، وداعا للسلاح، الموت في الظهيرة، الفائز لاينال شيئاً)، كان لقص الشعر أربع مقولات.

معي عشرون سنتاً ونصف علبة (بُلْ دورهام). لففتُ لفافة، ناولتُ العلبة إلى أحد الجالسين معي وكان بادياً عليه أنه في حاجة للنيكوتين، فاستنشق الدخان الجاف، مفكرا في حال أمريكا السياسية والاقتصادية والخُلقية. وكان جاري يُناهز السادسة عشر. نظرتُ الى إيوا، الأمريكي جامد الملامح الذي لايبوح بمشاعره، نظرت إلى الزغب الكثيف يُحيط بفمه. لم يُغير ملابسه لعدة أيام، بالاضافة الى نومه الخاطف وبُقْتِه القصيرة، وما إلى ذلك. تملكتني رغبة في معرفة اسمه. دائما ينزع الكاتب الى سبر الوجوه والأشكال. قال إيوا:

ـ أنا قادم على التوّ من سالبناس. لاتوجد فرص عمل في حقول الخس. سأتجه الى بورتلاند في الشمال، ثم أجرب حظي بالابحار خارج البلاد.

أحببتُ أن أروي له ماحدث لي: قصةٌ مرفوضةٌ من (السكريبنر)، ومَقَالٌ مرفوض من (الريفيو بيل)، ولاأملك نقوداً لشراء لفائف دخان مناسبة، وأحذيتي بالية، وقمصاني قديمة، ولكني أحجمتُ عن التصريح بشيء من متاعبي الخاصة. دائما يتحمل الكاتب متاعبه، قد يكذب قليلا. حسناً، فالناس الذين يطلبون منك أن تكتب، كان من الواجب عليهم أن يتفهموا حالك أولا؟. لذا يتحتم على الرجل أن يتظاهر بأنه ليس كاتبا. قلت: ـ حظ سعيد لك في رحلتك الى الشمال.

هزّ إيوا رأسه: ـ أعرف جيداً. على أيِّ حال، فلتكن محاولة. ولن أخسر شيئاً.

ولد ممتاز، يتمنى ألاّ يموت، وألاّ يتجمد، في تلك الأيام شديدة البرودة (ديسمبر 1933). يتمنىّ ألا يستسلم، فهو جدير بالحياة، آمل ياإيوا أن تجد عملا في بورتلاند، آمل أن تحصل على مالٍ مُجز، آمل أن تستأجر غرفة نظيفة فيها فراش دافىء تنام عليه، آمل أن تنام ليلاً، وتأكل بانتظام،

وتمشي بمفردك سعيداً مثل أيِّ كائن بشري. أطيب أمنياتي لك ياإيوا. لقد دعوتُ أدعية كثيرة من أجلك.. (على أيِّ حال، فقد ألفيته مُحْبَطاً آنذاك. وينقصه الإقدام، في ذلك اليوم الذي قابلته فيه).. كان ذا وجهٍ حيواني غيرِ مُريح، في الوقت الذي كانت فيه مسارح أمريكا تعرض، مراتٍ متتالية، فيلما كرتونيا جذابا تُغنَّى فيه أغنية «**من الذي يخاف من الذئب الكبير الكريه؟**» وهذا كلُّ مايمكن أن يُقدَّم. (الناس يضحكون بنقودهم على الموت الزاحف خلسةً في أجسام صبية يُشبهون إيوا، الصغير، متجاهلين أن هنالك شيئاً ما، ويضحكون في المسارح الدافئة. لقد صلّيتُ من أجل إيوا،واعتبرتُ نفسي جباناً، انه قد يموت في نفس الوقت الذي أجلس فيه بغرفة صغيرة لأتحدث عنه، فقط أتحدث).

أخذتُ أراقب الصبي الياباني الذي كان يتعلَّم ليكون حلاقا. كان يحلق لصعلوك عجوز ذي وجه مخيف، مثل تلك الوجوه التي تبدو هكذا بفعل سنوات وسنوات من القلق وعدم الاستقرار في مكانٍ واحد، وعدم استحواذه على شيء، ويبتعد الصبي الياباني بأنفه الى الخلف (أنفه هو)، ورغم ذلك فهو لايشم رائحة الصعلوك العجوز.

على أيِّ حال، فقد دَوَّنتُ ملاحظة عابرة في قصة، أو هي جزء ضئيل من تفاصيل لامكان لها في عمل فني. ان الكاتب الشاب يخاف دائما أن تَفْلتَ منه أية حقيقة هامة. لهذا يعمد دائما الى تدوين كلِّ شيء يراه.

أردتُ أن أعرف اسم الصبي الياباني. وأنا بطبيعتي أحفل كثيراً بالأسماء. وغالباً ماأجد الأسماء غير المعروفة هي الحقيقية. ولنأخذ اسما كبيرا مثل أندرو ميلون. كنت أراقب الصبي الياباني باهتمام بالغ. كي أعرف المغزى من استعماله حاسة الشم بعيدا عن فم ومنخري العجوز، بينما هو يفكر.. ماهي حقيقة شعوره؟ منذ سنوات ـ عندما كنتُ في السابعة عشرة ـ شذبتُ عريشة العنب بمزرعة عمي، شمال سانجر، في قرية سان جواكين، وهناك

كان يعمل معي كثير من اليابانيين: يوشيو انوموتو، هيديو، سوزوكي، كاتسومي سوجيموتو، وواحد أو اثنين آخرين. وتعلمتُ من هؤلاء اليابانيين جُمَلاً بسيطة قليلة، مثل: أهلاً، كيف حالك، يوم سعيد، أليس كذلك، وداعاً، وما إلى ذلك. قلتُ للطالب الحلاق باليابانية: - كيف حالك؟

قال باليابانية: - حسن جداً، أشكرك.

ثم، بانجليزية ليس فيها خطأ:

- هل تتكلم اليابانية؟ هل عشتَ في اليابان؟

قلت: - لا، للأسف الشديد. فقط يُمكنني نُطق كلمةٍ أو اثنتين، فقد اعتدتُ أن أعمل مع يوشيو انوموتو، وهيديو سوزوكي، وكاتسومي سوجيموتو، أتعرفهم؟

واصل عمله وهو يُفَكِّر في الأسماء التي ذكرتها. قال هامسا كأنما يُحَدِّث نفسه: - انوموتو، سوزوكي، سوجيموتو..

قلت: - سوزوكي، رجل صغير السن.

قال: - نعم، أعرفه. انه يسكن حالياً بسان جوزيه. وتزوَّج حديثاً.

أردتُ أن أُعْلِمَك بمدى اهتمامي الزائد بِمَا يذكره الناس. فالكاتب الشاب لايتأثر بالأماكن وهو يتحدث الى الناس، وإنّما يُمعن التفكير فيما يذكرونه. وفي كتابتي للقصة القصيرة، لاأُحَدِّد اطارا كبيرا لها. فليس ثمَّة حدث ذو أهمية. ولا أصنع أحداثا مُحْكَمَة. ولاأخلق شخصيات تستحق الذكر. كما لاأستخدم أسلوباً بارعاً في الكتابة. ولاأبني عالماً باهراً.. وليست لديَّ رغبة في بيع هذه القصة أو أي قصة أخرى الى مركز (ساترداى ايفيننج) أو الى (كوزمو بوليتان) أو الى دار (هاربر). ولاأحَاول التشبُّه بكتَّاب القصة القصيرة الكبار، أمثال (سنكلير لويس)، (جوزيف هير جيشيمر) و (زان جراي)، الذين يعرفون جيدا كيف يكتبون، ويُبدعون قصصاً يُمْكِنُ بيعها.

إن الأثرياء هم الذين يفهمون كل قواعد الخطة والشخصية والأسلوب والجو العام وكل مايلزم للكتابة. فليست لديَّ رغبة في نيل شهرة. واني لأبعد ماأكون عن الفوز بجائزة بوليتزر أو جائزة نوبل أو أيِّ جائزة أخرى. واني أعيش هنا بعيداً، في الغرب الأقصى، في (سان فرانسيسكو)، في غرفة صغيرة بشارع (كارل). أكتب رسالة الى عامة الناس، ذاكراً لهم بلغة بسيطة يفهمونها جيداً. فأنا مجرد مُسَّجل، لهذا، اذا هِمْتُ على وجهي قليلا، فلأني لستُ متسرعاً ولستُ مُتقناً للقواعد. وان كنتُ صاحب رسالة، فرسالتي هي تحقيق المؤاخاة بين سائر البشر. انها رسالة عظيمة، وان حَظِيَتْ بتقديرٍ متواضع. ليس في مقدور الانسان، بصفة عامة، تحقيق رسالة كهذه. ذلك أنه غير واثق بأهل الخبرة من الناس الذي سيسخرون منه، مافي ذلك شك. ولكني لاأمانع في سخريتهم. وإنّي أطالب الناس المغالطين أن يسخروا. فان المغالطات تظهر في مثل هذه الحالات. ولستُ أومن بالأجناس. ولا أومن بالحكومات. وأرى الحياة حياة واحدة في زمن واحد، لعدة ملايين ينتشرون في أرجاء المعمورة في نفس الوقت. أما الأطفال الذين لم يتعلموا بعدُ التحدث بأية لغة، فهم الجنس الوحيد على الأرض، وهم بنو البشر، والباقون يتظاهرون بما نُسَمِّيه مدنية، وبغضاءً، وخوفاً، ورغبة في استعراض القوة... لكن الطفل هو الطفل. وأنتم تزعقون هناك، بطريقةٍ ما، وأنتم تحققون التآخي بين سائر البشر، بينما الأطفال يتصايحون. نحن نكبر ونتعلم مفردات لغةٍ ما، ونرى الكون من خلال اللغة التي نعرفها، ولانراها من خلال جميع اللغات أو من خلال الجهل بكل اللغات على حدٍ سواء، من خلال الصمت مثلاً، أي أننا نَعْزِلُ أنفسنا في لغةٍ واحدةٍ نعرفها. فنحن هنا، نعزل أنفسنا في اللغة الانجليزية، أو الأمريكية على حدّ قول (مينكين). وفي كلمات هذه اللغة بما تحمله من معاني ومفاهيم. وإذا أردتُ أن أفعل أيَّ شيء، فانه تعوزني لغةٌ أكثرَ شمولاً. انه قلب الانسان، هذا الجانب غير المكتوب من الانسان، ذلك الجزء الباقي وتتقاسمه كل الأجناس.

والآن، أشعر بخطئي وعجزي. فقد استخدمت هذه اللغة للتعبير عن كل ذلك، وأحسب أني لم أقل شيئاً. وقد يضطر الكاتب الصغير أن يخرج عن حدوده، فقدان الاحساس بشيءٍ ما، هو كلُّ مايُمكن أن يقال. ويتوجب على الصحفي العادي أن يكون قادراً على العمل بالكامل بتعليق مُكوَّن من ثلاث كلمات: الانسان هوِ الانسان... ينبغي أن يكون ماهراً في التعبير، وبأيّ عددٍ من الاستدلالات. ولكني أريد استخدام اللغة إلى تُعطي مدلولاً واحداً. أريد المعنى الأكثر دقة، وربما يرجع السبب التي كون اللغة غير دقيقة تماماً. فأنا أجول بفكرتي، رغبةً في تحقيق شيءٍ ما، فأحاول تجسيده من جميع الزوايا، وبهذا سأرسم الصورة الإجمالية، أو الصورة الكُلّيّة. انه قلب الانسان الذي قصدت الاشارة اليه.

ولأُجَرِّب من جديد: لم أقص شعري منذ زمنٍ طويل وبدا شكلي رثّاً، فاتجهتُ الى مدرسة الحلاقين في الشارع الثالث، وجلستُ على كرسيي. قلت:

- اتركهُ كثيفاً من الخلف، فرأسي ليست عريضة. واذا لم تتركه كثيفاً من الخلف، فسيبدو شكلي وأنا خارج من هنا كالحصان. خذ منه ماترغب أن تقص، من أعلى فقط. لاغسيل، ولاماء، ومَشِّطْهُ جافا.

تَخْلِقُ القراءةُ الانسانَ الكامل، وتزيده الكتابةُ كمالاً، كما ترى. هذه حقيقة. ولايستطيع الكاتب تناول أكثر من قصةٍ عن السبب الذي دفعني لترك الحلاق الشاب الذي اعتاد أن يحلق شعري.

كان طويلاً، بوجهٍ غريب داكن، وشفتين غليظتين. له ابتسامة ما، لكنه مكتئب. رموشه كثيفة وعيناه حزينتان، وأنفه كبير. قرأتُ اسمه على البطاقة المثبتة في المرآة: (تيودور بَدال). اسم عادي لابأس به. وهو شاب طيب أصيل. بدأ تيودور بَدال يحلق رأسي. انه حلاق ماهر، لاينبس ببنت شفة حتى يجد موضوعاً يستحق الحديث عنه. ولعله لايُلقي بالاً إلى مايُؤرقه. قلت: - اسمك (بَدال).. هل أنت أرمني؟

أنا أرمني. تذكرتُ هذا من قبل. يُحدّق الناس فيَّ مندهشين، لهذا أواجههم وأفسِّر لهم بدقة فأقول. ـ أنا أرمني..

أو يقرأون شيئاً كنت قد كتبته فيُدهَشون، لهذا أُحيطهم علماً، فأقول:

ـ أنا أرمني.

هي اشارة بلا معنى، لكنهم يتوقعون أن أقولها، لهذا قلتها. وليست لديَّ فكرة عمَّا اذا كان من الأفضل أن أكون أرمنياً أو من الأفضل أن أكون أنجليزياً أو يابانياً أو حاملاً أيَّ جنسيةٍ أخرى. ففكرتي محدودة في أهمية أن أكون حياً. هذا هو الشيء الوحيد الذي يهمني كثيراً. هذا الشيء يهمني. ولعبة التنس أيضا. وآمل ذات يوم أن أكتب عملاً فلسفياً ضخماً عن التنس، عملاً ما، مثل (الموت في الظهيرة)، وان كنتُ غير مُهَيَّءٍ تماماً لانجاز عملٍ كهذا. وأعتقد أن الاهتمام بالتنس على نطاقٍ واسع بين شعوب الأرض، سيؤدي حتماً الى تذويب الخلافات العرقية، والتكتلات، والبغضاء، وما إلى ذلك. وعندما تكتمل رغبتي، آمل أن أعكف على وضع الخطوط الأساسية لهذا العمل العظيم... قد يبدو للناس المخدوعين أني أهزأ بهيمنجواي. هذا غير صحيح. فـ(الموت في الظهيرة) قطعة نثرية مكتملة ولطيفة. ولاأعترض على النص اطلاقاً. ولايُمكنني الاعتراض عليه أيضاً كفلسفة. وأعتقد أنها أدقُ فلسفةً مِمَّا كتبه (ويل دورانت)، و (والتر و بيتكين). وحتى لو كان هيمنجواى غبياً، فانه على الأقل غبي حاذق. فهو يحكي لك مايحدث فعلاً، ولاتضطره الأحداث التي تتلاحق بسرعة الى أن يُسرع هو الآخر في سرده. ويُعَدُّ هذا توفيقاً منه. كما أنه نوع من الارتقاء بالأدب، ذلك التريث والتأني في سرد طبيعةِ ومعنى مايحدث في زمنٍ قصيرٍ جداً.

سألت: ـ هل أنت أرمني؟

نحن شعب صغير. واذا ماالتقى أحدنا بالأخر، فانها حادثة. ودائماً نتلفت حولنا باحثين عن شخص ما ويتحدث بلغتنا. ويُقدِّر حزبنا السياسي الطموح تعدادنا بنحو مليونين يعيشون على وجه المعمورة، وان كان معظمنا

لايكترثون، فيجلس الواحد منا متناولاً قلم الرصاص والورقة، ويركز على جزء من العالم، ويُخمّن عدد الأرمن الذين يعيشون في هذا الجزء، بأكبر تقدير. ويدوّن على الورقة الرقم الأعلى، ثم ينتقل الى جزء آخر: الهند، روسيا، أرمينيا السوفييتية، مصر، ايطاليا، ألمانيا، فرنسا، أمريكا، أمريكا الجنوبية، استراليا، وهكذا.... ثم يجمع هذه التقديرات الحالمة فيكون حاصل الجمع أقل قليلاً من المليون. ونفكر في حياتنا العائلية، كيف تزداد نسبة المواليد، وتنخفض نسبة الوفيات (باستثناء زمن الحرب حيث تُزيِّدُ المجازر نسبة الوفيات)، ونتخيَّل زيادتنا السريعة اذا ماأُتيحَت لنا الفرصة لتدبير شئوننا بأنفسنا لمدة ربع قرن، فتغمرنا السعادة. ودائماً نُسقط من حساباتنا الزلازل، والحروب، والمجازر، والمجاعات، وماشابه ذلك. وانه لمن الخطأ أن أتذكر سيارات الاغاثة التي تأتي الى مدينتنا الأم. واعتاد عمي أن يكون خطيبنا. حسناً، فمشكلتنا الأساسية هي الحرب. فقد دمَّر الأعداء شعبنا. وهؤلاء الذين لم يُقتلوا صاروا بلا مأوى، وبلا طعام. انهم ـ على حد قول عمي ـ لحمنا ودمنا، ونذرف الدموع عليهم جميعاً، ونجمع المال ونُرسله الى شعبنا في الموطن القديم.

وبعد الحرب، استطعنا أن نحصل على سيارة اغاثة أخرى.

كبرتُ قليلاً، فألفيتُ عمي يقف في قاعة المجلس البلدي للعاصمة، ويقول: ـ أشكر الله هذه المرة على هذا الابتلاء. فقد ابتلانا بزلزال آخر لنقاسي. نحن نصلي له وقت البلاء والمحنة، ووقت المعاناة والكرب.. (أخذ عمي ينوح ويبكي).. ووقت جنون اليأس. انها حقاً مشيئته، ومازلنا نشكره، مازلنا نصلي له. وإن كنا لانفهم جيداً الحكمة من ذلك.

وبعد الخطبة، توجهت الى عمي وقلتُ له:ـ هل تعني ماقلته عن الله؟

فقال: ـ هذه فصاحةٌ نأمل من ورائها زيادة المال..

سألته: ـ وعندما بكيت؟

أجاب: ـ هذا أمرٌ لامفرٌ منه..

وبكيت... لماذا؟ .. لماذا قُدِّر لنا جميعاً أن نمضي الى نار الله الموقدة؟ مالذي ارتكبناه حتى نُبتلى بكل هذه الآلام؟ أما آن الأوان كي يتركنا الناس في حالنا؟ ...هل ارتكبنا ذنباً ما؟ هل من المُسلَّم به ألا نكون من الناس الصالحين؟ ماهي معصيتنا؟ ...(انني مَمْرُورٌ من تصرفات البشر): وأتمنى أن أكبر وأقول شيئاً ، ولستُ بقادر على ابقاء فمي مغلقاً دون التصريح به. ولاأستطيع التسليم بالقول الشائع بأن معظم شعبنا يحتضر. ألا تستطيع أيها السيد المسيح أن تفعل شيئاً؟

سألتُ تيودور بَدال ما وإذا كان أرمنياً. قال: ـ أنا آشوري.

هذه اجابة مُشجِّعة. فالآشوريون أتوا من منطقتنا، لهم أنوف كأنوفنا، وعيون كعيوننا، وقلوب كقلوبنا. ولهم لغة مختلفة. عندما يتكلمـون، لانستطيع أن نفهم مايعنون، وإن كانوا يشبهوننا كثيراً. وليس هنالك شيء يبعث على السرور تماماً إذا ما كان (بَدال) أرمنياً، أو ذا جنسية أخرى. قلت له: ـ أنا أرمني. واعتدتُ التعرف على بعض الصبية الآشوريين في محل اقامتي، هوسيب سركيس، ونيتو ايليا، وطوني صالح.. هل تعرف واحداً منهم؟

أجاب بَدال: ـ هوسيب سركيس، أعرفه. والآخرون لاأعرفهم. عشنا في نيويورك منذ خمس سنوات مضت، ثم انتقلنا غرباً الى (تورلوك). ثم شمالاً الى (سان فرانسيسكو).

قلت: ـ قُتِل طوني صالح منذ ثماني سنوات، كان يمتطي حصاناً فوقع عن ظهره لكن الحصان ظلَّ يعدو. لم يستطع طوني أن يتحرك، وقد قُيدت احدى رجليه، ودار الحصان مطبقاً عليه لمدة نصف ساعة، ثم سكن، وعندما هرع الناس لنجدة طوني، كان قد فارق الحياة.... كان عمره أربعة عشر عاماً، واعتدتُ الذهاب معه الى المدرسة. وكان طوني ذكياً، متفوقاً في الحساب.

تحدثنا عن اللغة الآشورية واللغة الأرمنية، وعن العالم القديم، والظروف المحيطة بنا، وما إلى ذلك. كنتُ أقصُّ شعري بخمسة عشر سنتاً وأبذل قُصارى جُهْدي كي أتعلم شيئاً في الوقت ذاته، وأخرج بمفهوم جديد وتصوُّرٍ آخر لمعجزة الحياة، وكرامة الانسان... (**وللانسان كرامة تعلو على كل شيء، ولاتتخيّل أنه يملك شيئاً غيرها**).

قال بَدال: ـ لاأستطيع القراءة بالآشورية. نعم، وُلِدتُ في الوطن القديم، لكني منصرف عنه.

وأطلق زفرة ضيق تنم عن التعب.

قلت: ـ لماذا؟ لماذا أنت منصرف عنه؟

ضحك: ـ حسناً، لأن كلَّ شيء، ببساطة، قد انتهى فيه.

كَرَّرْتُ كلماته، بكلِّ دقة، دون أن أُدْخِلَ شيئاً من عِنْدِيَّاتي.

واستطرد: ـ ذات يوم، كنا شعباً عظيماً، كان هذا بالأمس، أول أمس. والآن، نحن تجمَّدنا عند هذا التاريخ القديم. كانت لنا حضارة كبيرة. مازالوا يُشيدون بها. واليوم أعيش في أمريكا لأتعلّم قصّ الشعر. لقد انقرض شعبنا. قُضِيَ الأمرُ بالنسبة لنا، فما أهمية تعلّم القراءة بهذه اللغة؟ ليس لدينا كُتَّاب، وليست لدينا أخبار جديدة. حسنا هنالك أخبار قليلة جدا: فمن حين لآخر يقوم الانجليز بالتحريض على قتلنا. نحن نعرف هذه الأخبار جيداً تصلنا الأخبار بطريقة ما عن طريق (الأسوشيتدبرس).

هذه الملاحظات تُزيد حدَّة ألمي، أنا الأرمني. ودائماً يُسَاورني القلق فيما يتعلق بشعبي الذي أُبيد. ولم أجد أشورياً قطُّ كتب بالانجليزية متناولاً مثل هذه المواضيع. وأحسستُ بعاطفة تربطني بهذا الزميل الصغير. لستُ مخطئاً. إن عاطفة هذا الزمان تدفع المرء الى التفكير في زهور البانسيه وقتما يزهو بِحُنُوِّهِ على انسان. وأعتقد أني الآن أرتبط مع كل الناس بعلاقة ود، حتى أعداء أرمينيا، هؤلاء الذين لاأُحَبِّذ أن أذكرهم. فكلُّ شخصٍ

يعرف من يكونون، أنا لاأُضمِرُ شراً لأيٍّ منهم، لأني أعتقد أنهم مثل رجل يحيا حياته في وقت معين، وأعرف بايجابيتي، أن رجلاً ما في وقتٍ معينٍ غيرُ قادرٍ على تصور الفظائع التي ارتكبها الرعاع. فاعتراضي قاصر على الرعاع فقط.

قلت: - حسناً، نفس الشيء حدث لنا، الى حدٍ ما. فنحن أيضاً تَقَدَّمَتْ بنا الأيام. مازالتْ لنا كنيستنا. ومازال لنا كُتّاب قليلون.. مثل: أهارونيان، وإساهاقيان، وعدد آخر، لكن الحال لم يتغيَّر كثيراً.

قال الحلاق: - نعم، أعرف. نحن وقعنا في أخطاء متشابهة. قد اشتركنا في أمورٍ بسيطة، السلام والهدوء والتناسل. ولم نهتم بالتنظيم أو الغزو أو التفوق العسكري. لم نهتم بالسياسة والخديعة واختراع المدافع الرشاشة والغازات السامة. حسناً، لم يعد يُجدي الندم. فلنعش يومنا.

قلت: - فلنتفاءل... فما من أرمنيٍ يعيش حياته إلا وهو يحلم بأرمينيا مستقلة.

قال بَدال: - حلم؟ حسناً، هذا كل مافي الأمر، أما الآشوريون فلا يملكون حتى أن يحلموا بأشياء أخرى. والسبب معروف.. هل تعرف عدد الذين تركوا أرضهم منّا؟

قلتُ مُخَمِّناً: - اثنان أو ثلاثة ملايين.

قال بَدال: - سبعون ألفاً... فقط .. سبعون ألف أشوري في العالم، ومازالوا يحاربوننا... قتلوا منا سبعين في حركة تمردٍ بسيطةٍ وقعت في الشهر الماضي. وهنالك فقرة صغيرة بالصحيفة عن ابادة أكثر من سبعين شخصاً منا. نحن سنفنى في القريب. لقد تزوّج أخي من فتاة أرمنية وصار له ابن. ليس ثمَّة أمل آخر. نحاول أن ننسى اشور. ومازال أبي يقرأ جريدة تصل من نيويورك، لكنه عجوز. انه في عِدَاد الأموات.

ثم تغيَّر صوته. توقف عن الحديث بصفته آشورياً، وبدأ يتحدث بصفته حلاقاً، سألني: - هل أقص الشعر من أعلى؟

ولم يُشِر الى بقية القصة. ألقيتُ التحية على الشاب الآشوري وأنا أغادر المحل. ومشيتُ في المدينة أربعة أميال، الى أن وصلت الى غرفتي بشارع كارل. وأخذتُ أفكر في الموضوع برُمَّتِه: آشور، وهذا الآشوري، تيودور بَدال، الذي يتعلم مهنة الحلاقة، الحزن في صوته، وفقدان الأمل في المستقبل. كان ذلك منذ بضعة شهور، في أغسطس، لكني منذ ذلك الحين أفكر في آشور، وأحببتُ أن أقول شيئاً عن تيودور بَدال، ابن السلالة القديمة، بنضارته وحيويته، ويأسه أيضاً. سبعون ألف أشوري، فقط سبعون ألف من هؤلاء الناس العظام، أما الباقون فقد ماتوا كلهم. والعظمة قد زالت ونُسِيَتْ، وهذا الشاب المقيم في أمريكا، يتعلم ليصبح حلاقاً، ويتباكى بحرقة على حركة التاريخ.

لماذا لا أخطط وأكتب قصصَ حبٍ جميلة تكون مناسبة للسينما؟ لماذا لا أتغاضى عن تلك الأحداث المملّة التافهة؟ لماذا لاأحاول ارضاء أمزجة القراء الأمريكيين؟

حسناً، أنا أرمني. وميخائيل أريان أرمني أيضاً. انه يُرضي أمزجة القراء. وأكنُّ له اعجاباً كبيراً، وأرى أنه صاحب أسلوب رائع جداً، وما إلى ذلك، لكني لاأريد أن أكتب عن الناس بالكيفية التي يكتب بها عنهم. فان هؤلاء الناس فقدوا الوعي. أنت تتناول إيوا، الولد الياباني، وتيودور بَدال الآشوري، حسنا، هؤلاء الناس انتهوا، ماتوا جسدياً مثل إيوا، أو ماتوا معنويا مثل بَدال، لكنهم النسيج الباقي من البشر. انه النسيج الذي يستهويني. أنت لاتجدهم في أماكن راقية، يستميلون الحاضرين الظرفاء عن الجنس، والحاضرين التافهين عن الفن. أنت تجدهم مثلما وجدتهم أنا، وسوف يكونون هنالك دائماً، هم سلالة البشر، جزء من البشر، جزء من آشور، مثلما هم جزء من انجلترا، حيث لايمكن افناؤه، جزء لاتقضي عليه المذبحة، ولايقضي عليه الزلزال والحرب والمجاعة والحماقة، وأي شيءٍ آخر.

وهذا العمل تقدير شخصي لإيوا، لليابان، لآشور، لأرمينيا، لبني الانسان في كل مكان، لرد اعتبار الانسان، للأخوة بين الأحياء، ولاأتوقع أن يظهر هذا العمل في فيلم من أفلام (بارامونت). مايشغلني هم السبعون ألف آشوري، وواحد في زمنٍ ما، حي، وسلالة عظيمة، أفكر في تيودور بَدال. انه يمثل السبعين ألف آشوري والسبعين مليون آشوري، انه آشور، وهو الانسان، الواقف في محل حلاقة، بسان فرانسيسكو، عام 1933 ، انه رمز للسلالة كلها... (ولايزال يمثل بشخصه السلالة كلها).

المؤلف في سطور

*- وليم سارويان...

- وُلِدَ في مدينة (فريستو) بولاية كاليفورنيا عام 1908.
- هاجر أبواه من أرمينيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية قُبَيْلَ ميلادِهِ بفترة قصيرة.
- توفي أبوه وهو في الثانية من عمره. فأُلْحِقَ بموسسةٍ للأيتام، فمكث فيها خمس سنوات.
- اضطرت أمه للعمل كي تُدَبِّرَ نفقات معيشته هو وأخوته.
- أُلْحِقَ بالمدرسة حتى سن الخامسة عشرة.
- في صباه مارس مهناً عديدة كبيع الصحف وجَنِي العنب ثم عُيِّنَ موزعاً للبرقيات... مارس القراءة منذ الصغر، فثقَّف نفسه بنفسه، مِمَّا هيَّأ له العمل في الصحافة.
- صدرت أول مجموعة قصصية له عام 1934 : (الشاب الجَسُور اللاعب على الأرجوحة.)

* من مؤلفاته القصصية :

- الأطفال الصغار (1937)
- ياحب .... هاكَ قُبَّعَتِي (1938).
- السلام .. شيءٌ رائع (1938).
- اسمي آرام (1939)

* من مؤلفاته المسرحية:

- قلبي في الأعالي (1939).
- الناس الحلوين (1941).
- رازل دازل (1941).

* من مؤلفاته الروائية:

- الملهاة الإنسانية (1943).
- مغامرات ويزلي جاكسون (1946).
- روك وإجرام (1950).
- أمي-أحبـــك (1956).
- أبـــي... أنت أحمق (1957).
- هنا يأتي ، هناك يذهب، وأنت تعرف من يكون 1961.

- مُنِحَ جائزة (بوليتزر) عن مسرحية (أيام حياتك) ضمن مجموعة المسرحيات (قلبي في الأعالي). لكنه رفض استلام الجائزة.
- توفي عام 1981.

المترجم في سطور

*- حسني سيد لبيب.

- ولد في 18 نوفمبر عام 1942 ببولاق بالقاهرة.
- عضو اتحاد الكتّاب بمصر.
- عضو رابطة الأدب الحديث.
- عضو جمعية أنصار حقوق الإنسان بمصر.

* - صدرت له الكتب التالية:

- باقة حب : دراسة أدبية - القاهرة 1977.
- حياة جديدة : قصص - الشرقية 1981.
- أحدثكم عن نفسي: قصص - دمشق 1985.
- طائرات ورقية: قصص - القاهرة 1992.
- مختارات من قصص سارويان: جزآن - دار الصداقة، سورية، حلب - 1994.

*- قيد الطبع:

- الرقص على الطين: قصص،عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.
- كلمات حب في الدفتر: قصص، عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

فهرس

من منشورات دار الصداقة

*- في القصة والرواية

- (20 قصة سورية): ترجمها إلى الأرمنية : د. بوغوص ساراجيان

مراجعة وتحرير : د. يراونت كاسوني.

- مختارات قصصية (1): (70 ألف آشوري) وليم سارويان.

ترجمة : حسني سيد لبيب.

- مختارات قصصية (2): (ابن عمي ديكران) وليم سارويان.

ترجمة : حسني سيد لبيب.

- من الأدب الجيورجي: (فانو و داتو) إيرلوم أخليدياني.

ترجمة : غادة جاويش - د. مارينا تخينفاللي.

- رواية : (خان الزيتون) فيصل خرتش.

*- في الشعر :

*- مختارات شعرية (1): بارور سيفاك

ترجمة : د. بوغوص ساراجيان.

مراجعة: لوسي قصابيان - غسان كجّو

*- مختارات شعرية (2) : د. كيفورك تميزيان.

ترجمة : لوسي قصابيان - غسان كجّو.

*- في الدراسات:

*- دفاتر الصداقة (1) : الصهيونية والطورانية
وتأثيرها على مستقبل شعوب المنطقة.)
دراسة : جبران خوري.

*- دراسات فنية (1) : صاروخان . . . فنان الكاريكاتير.
دراسة : مروان الخطيب.

*- دفاتر النهضة العربية (1): (المجتمع المدني مفهوماً واشكالية)
محمد جمال باروت.

*- دفاتر النهضة العربية (2) : (الثقافة الوطنية / الحداثة)
د. عبد الرزاق عيد.

*- دفاتر النهضة العربية
أعلام (1): (فرانسيس مرّاش) محمد جمال باروت.

*- دفاتر النهضة العربية
أعلام (2) : (قسطاكي حمصي) د. عبد الرزاق عيد.

*- دفاتر النهضة العربية
أعلام (3): (خير الدين الأسدي) محمد جمال باروت.

70 الف آشوري / وليم سارويان؛ ترجمة حسني سيد لبيب
حلب : دار الصداقة، ١٩٩٤ - ١٠٤ ص؛ ٢٤ سم .
(مختارات قصصية ؛ ١)

١- ٨٢٣ أ م س ا ر س ٢- العنوان
٣- سارويان ٤- لبيب
٥- السلسلة

مكتبة الأسد

ع - ٨٢٣/٨/١٩٩٤